شهد الغواية

الدكتور موسى نجيب موسى

Alaayeka | ألايكا



رواية

شهد الغواية

الدكتور موسى نجيب موسى



الإهداء:

أفرغ حروف كلماتي

وأسكب فيها دمي

علها تصل إليك يوما ما

ليتك تحسين يا ....

ليتك تحسين

تحسين بي

ولو مجرد إحساس ليس أكثر

فلا تطرديني من ملكوتك

لأن ملكوتك هو .... بهجة وجودي

موسى ٢٠١٠



- أريد أن أحبل منك.

لم يندهش لكلامها، لمجرد رغبتها في الحمل منه، بقدر ما اندهش لهذه الرغبة المحمومة التي تطل من عينيها لاحتوائه بعنف.

- ليس مهماً أن يكون الجنين ولداً أو بنتاً.

يحاول أن يستفيق من غفوة سرقها من عينيها لبرهة، لكن كلماتها كانت تخدره تماماً، وتسلمه لنشوة لطالما كان يعيش فيها في أحلامه وفى يقظته.

- المهم أن تزرع بذرتك في أرضي الجدباء.

ظلت كلماتها تلسع أذنيه وتلهب قلبه المضطرب، وهي تواصل جلده بسياط كلماتها التي لا تنتهي.

- أوحشتني كثيراً.



تقولها بغنج أنثوي غريب ودلال لطالما اشتاق أن يسمعها منها ... منها هي... دون كل بنات الأرض... اللائي قابلهن في مشوار حياته، الممتلئ بالأشواك والحسكة التي طالما أدمت قدميه... وقلبه معاً.

لا يعرف من تآمر مع الزمن ليحدد موعد لقائهما معاً، أو من دبّر مكيدة مع المكان الذي جمعهما معاً، لينفرد بها وتنفرد به في هذا المكان بالتحديد الذي لا يعرف معالم له...

هل زميلتهما السمراء التي أحبته هي الأخرى، ووهبت له قلبها وجسدها البرونزي معاً؟

أم كان بوحُ إلهيّ وتدبير ربّانيّ مسطور في كتّاب حياتهما الملقى أسفل قدمي الإله؟

أم أنّ الأمر برمّته من وحي خياله، ونبت من أنبات أحلامه المزعجة، التي ظلت تهاجمه منذ آخر يوم ودعها فيه الوداع الأخير؟

رغم أنّه كان لقاءً عادياً جداً، جمعهما فيه نهاية العام الدراسي في المدرسة التي كانا يعملان معاً فيها، ولم يكن فيه شيء غريب سوى تجهيز الطعام الذي طلبه منها بالاسم –



مكرونة بالبشاميل و بوفتيك- عندما أعلنت على الملأ أنها مزمعة أن تقوم بعمل وليمة كبيرة لجميع العاملين بالمدرسة، بمناسبة انتهاء العام الدراسي، وفوجئ بتنفيذها لطلبه بالرغم أنه لم يكن أكثر من مزحة عابرة.

حدثٌ آخر ما زالت ذاكرته العطنة تختزنه في إحدى زواياها، وقع في نفس هذا اليوم ...

طلبه من زميلتهما السمراء أن تخبرها بأنه ينتظرها خلف مبنى المدرسة أمام معمل العلوم، الذي طالما ألقت فيه على تلاميذها من علمها في مادة العلوم التي كانت تعشق تدريسها.

لم تناقش زميلتهما السمراء في الأمر، بل هرولت مسلوبة الوعي والإرادة تلبي طلبه بسرعة أذهلت الصديقة السمراء، وحينما أتت إليه أعطاها شريطاً لعبد الحليم حافظ، وبه أغنيتان وحيدتان:

(أغنية أي دمعة حزن لا - وأغنية خسارة خسارة).



قال لها من بين دموع لا يعرف لماذا سقطت رغماً عنه أمامها، وهو الذي لا يتمنى مطلقاً أن ينكشف ضعفه أمام أي أحد خاصة أنثاه التي اصطفاها من بين كل الإناث اللائي قابلهن في حياته:

- الأغنية الأولى لك والأغنية الثانية لي.

فسر لها كلامه عندما وجد أسئلة الدهشة تفرّ تباعاً من عينيها، ومن فمها الذي لم يكف عن الاستفسار حيث قال لها:

- الأغنية الأولى لك، حتى تدركي أنني لا أريدك أن تبكي بعد اليوم على أي أمر في حياتك، مهما كان قاسياً عليك وعلى قلبك الرقيق.

والأغنية الثانية لي، لأن فراقك يعدّ أكبر خسارة لي ولقلبي الرهيف.

اعتقدَ أنها فهمت ما يقصده، وأنها لا بد تقبل هديته المتواضعة، ولكنه اندهش كثيراً عندما رفضت هديته، واعتبرها بمثابة رفض له ولمشاعره الوثابة إليها، ولكن بعد إلحاح لم يطل كثيراً وافقت على أخذ الشريط منه، ولكنها رفضت بشدة أخذ صورته التي وضعها في كفها، وأطبق عليها بكفه الحانية، فسرت رعشة ملحوظة في جسدها انتفضت على أثرها بشدة، وألقت



بصورته في جيب سترته المفتوح، وارتعشت بشدة أكثر، عندما لامست دبلة خطوبتها التي تزين بنصر يدها اليمنى، مع خاتم زواجه الذي يزين بنصر يده اليسرى، وهو يحاول أن يحضن كفيها بكفيه ليودعها الوداع الأخير.

- ما رأيك فيما قلته لك في المرة الماضية؟

ظلّ فاغراً فاهه مدة ليست بالقليلة، ولم يعرف بماذا يرد؟ لكن ظلت ابتسامة باهتة عالقة بشفتيه، لا تريد أن تبرحهما أبداً، وعندما هم بالحديث هربت الكلمات فجأة من فمه ...

عاجلته بضرورة البت في الموضوع بسرعة، لأنه لم يتبقّ هناك وقتٌ ليضيع منهما، وكفى ما ضاع من عمرهما في عذابات وفراق ووحدة.

- لماذا لا تريد إراحتي، وتجيبني عن تساؤلاتي الحائرة؟

قالتها بعد أن استسلمت له بكامل إرادتها، وألقت بنفسها بين ذراعيه المرتخيتين من فرط الدهشة وهول المفاجأة.



تخلص من جسدها الثقيل بخفة غير معهودة فيه، وحاول أن يفرك عينيه، وينشب ظفر بنصره الأيسر الذي ينال منه جل عنايته، حتى يجعله أطول ظفر في أصابع يديه في لحمه، عله يفيق من حلم طال عليه، أو كابوس جثم على صدره، أو حتى يشعر ولو مجرد شعور حقيقي بطبيعة المكان والزمان الذي جمعهما معاً في غفلة من وجودهما، لكنه لم يدْر بشيء، وما استطاع أن يفعل شيئاً حيالها وحيال أسئلتها الملغزة ...

لم يجد بداً من ضمها إليه بشدة، حتى كاد يعتصرها، وكادت هي تقتلع بأسنانها الحادة حشائشه السوداء التي امتلأ بها صدره... لكن ذلك لم يساعده على أن يحدد حالته معها، التي استعصت على ذهنه الواهن أن يستوعبها.

هل هو في يقظة كاملة؟ أو في غفوة كاملة؟ أو هو في شبه يقظة وشبه غفوة؟!

- أنت حرّ ... لكن تذكر أنني أتيت إليك ولم ترِحني.

ظلت دوامة الحيرة تأخذه حلقاتها الدوارة، حتى أوصلته إلى قاع ذاته المتسع، وهناك أدرك أنه من الممكن أن يعثر عليها داخل إحدى المحارات، التي يكتظ بها هذا القاع الفسيح.



حاول أن يستعين ببعض قراءاته، وبقليل من خبراته في مجال رياضة الغوص، علها تعينه على الوصول إلى المحارة الوحيدة التي تحضنها من بين هذه المئات من المحارات، لكنه فشل كما فشل في القيام بدور الغواص، الذي كان يجيده بمهارة فائقة عن أقرانه، عندما كانوا يتسابقون منذ الصغر في الترعة التي تشطر بلدتهم إلى شطرين متساويين .

- ذنبي فى رقبتك لأنني أحببتك، ومازلت أحبك، وسوف أظل أحبك إلى الأبد.

وهْمٌ هي، أم حقيقة يستطيع أن يلمسها بيديه، ويقبلها بفمه، ويضمها إلى صدره، ويحتضنها بقوة تكاد تحطم معها ضلوعها الهشة؟

حقيقة هي أم سراب يداعبه في صحراء حياته القاحلة، والتي ازدادت جفافاً بعد أن ذرفت آخر دموع عليه، ورحلت إلى حيث لا يعلم؟

خيال هي أم واقع مرئي محسوس ملموس، يستطيع أن يتبادل معه حواراً بحوار، وحديثاً بحديث، وكلمة بكلمة، وحرفاً بحرف، دون أن تفسد عليه نزعته للخيال، والعيش معه وفق ما يرى هو فقط، وما يتمنى هو فقط أيضا؟



أسئلة أجهدته كثيراً، ولم يستطع الوصول معها إلى جواب شافٍ، يريحه من عذابات تجلد ذاته ليل نهار بلا رحمة أو هوادة ...

حاول الفكاك من هذا الأسر، لكنه لا يستطيع، فكلما هرب من حلقة تجره إليها حلقات أخرى، وكل حلقة تسلمه طواعية لباقي الحلقات، هكذا تتناوبه الحلقات فيما بينها حلقة بعد أخرى، ولا تتركه الحلقة إلا بعد أن تستنزف دماءه المستباحة على طاولة قلبها القاسي الذي لم يرق له أبداً. ...

لكنه أخيراً أفاق من غفوته الطويلة، التي ظن أنه لم ولن يفيق منها أبداً، على نقر من أصبع يدها الحانية على كتفه اليمني، وعندما استدار وجدها أمامه، فانعقد لسانه، ولم يستطع أن ينطق بحرف واحد، وتركها وسط وجومها ودهشتها ورحل بعيدًا عنها.

****

- هناك "شخصة" ما تحبك جداً جداً...!!

هكذا تحدث، ثم انطلقت القذائف من فوهة فمه إلى قلبي مباشرة، وقبل أن ترحل الدهشة عن عيني، وترتعش شفتاي بكلمات الاستغراب عاجلني:



- هذا الكلام ليس من عندي، بل من عند الله.

لم يترك لي الفرصة لكي أفكر من تكون هذه "الإنسانة"! ولم أحاول حتى أن أجد أي منطق طبيعي لكلامه، بل تتابعت قذائفه المحددة الهدف بدقة وعاد يقول:

- إنّ هذه "الشخصة" جميلة وثرية، وفوق كل هذا فهي مرتبطة بشخص آخر، هذا الارتباط تحديداً خطوبة فقط وليس زواجاً.. فأرجو أن تبتعد عنها، لأن الشيطان سوف يتدخل فليته يتدخل بعيداً عنك.

ضرباته المتلاحقة تواكبت مع ضربات قلبي الذي كاد يتوقف.. حاولت بحركة لا إرادية أن أخبئ خاتم الزواج من يدي.. لكنه عاد إلى فتح فوهة مدفعه صوب قلبي مباشرة:

- كذلك هناك "إنسانة" بمعنى الكلمة غالية عليك جداً، وتحبك جداً، وتنام معك على سرير واحد.. وترتع بحريتك في مراعيها الخضراء.

بهدوء شديد سحبت خاتم الزواج من يدي، ودسسته في جيب سترتي وقلت له:

- لكني غير متزوج.



- ومن قال لك إنني قلت إنك متزوج؟

- إذا كان الأمر هكذا.. فمن تكون تلك الإنسانة التي تنام معي في سرير واحد، وأرتع في مراعيها الخضراء؟!!

لم يرد، ولكنه رمقني بنظرة غريبة كادت تشرخ روحي، وقال بحدة لم أعهدها فيه من قبل:

- سوف نرفع قلبينا بالصلاة، والله سوف يكشف لنا الأمر.

صديقي "رفيق" كان يبادلني نظرات الحيرة والتيه، ويحاول قدر استطاعته تجنب ذلك العراف، الذي لم يكن يطلق البخور أو يطلق لحيته للأيام والزمن، أو حتى كان يطفئ الأنوار ويتفوه بكلمات غير مفهومة..

كذلك لم يكن هذا يتحسس مناطق حساسة من جسدك، أو حتى يقوم بعمل الأحجبة أو التعاويذ، كل ما كان يفعله أنه عندما تقصده في أمر ما، يرحب بك في منزله العامر بأحدث الأجهزة الكهربائية والإلكترونية، ويضع يده على فمك، طالباً منك عدم التفوه بأية كلمة، ثم يغمض عينيه، ويطلق العنان لسيل من الكلمات تقذفها أمواج بحر فمه الهادر..



تحاول كثيراً أن تلاحق هذه الأمواج أو تقاومها، أو تستبين الكلمات المنتقاة بعناية شديدة من قاموس غريب على أذنك وحياتك، فلا تصل إليك أية كلمة من كلماته غير المفهومة.

تخرق الكلمات العجيبة أذني بقوة. أحاول جاهداً معرفة السر وراء هذه الصلاة العجيبة التي يطلقها، لكني لا أصل إلى شيء..

بعد أن فتح عينيه ورآني بوضوح أخذ يحكي لي كل شئ في حياتي، رغم أنه أول مرة يراني فيها وجهاً لوجه.. الشيء الغريب حقاً، هو أن كل الكلام الذي قاله صحيح مائة بالمائة، وحدث في حياتي تماماً..

توقفت كثيراً عند موضوع "الشخصة" المخطوبة الجميلة الغنية، والتي تحبني جداً جداً... حاولت أن أعرف منه تفاصيل أكثر تعينني على معرفة من تكون هذه المزعومة، لكنه لم يعطني إجابة شافية، أو أي دليل يساعدني في الوصول إليها، لكنه عاد يقول في حزم نهائي:

-هناك "شخصة" ما تحبك جداً جداً، وهذا الكلام ليس من عندي، بل من عند الله.

دارت بي الحجرة ولم أدرِ بنفسي...



بعد أن أودعت بعض الجنيهات في يد ابنته الصغيرة "مريم"، خرجت من عنده مهرولاً، لا أعرف لقدمي طريقاً ولا وجهة معينة لي، ولا أعرف هل خرج معي صديقي "رفيق"، أم تركته فريسة أخرى يلتهمها ذلك العراف بصلواته الغريبة؟

في المساء لم أشأ أن أخبر زوجتي بما حدث، حتى لا أفسد قلبها الناعم، والذي يحبني بقوة ستة عشر عاماً مضت..

أخذت استعرض كل البنات التي مرت على في حياتي كلها، سواء هؤلاء اللاتي يحطن بي في العمل، أو بنات جيراننا أو أي بنت كنت قد قابلتها في أي مكان ودار بيننا حديث، وما زال حديثها عالقًا بأهداب عقلي.. وأخذت تتوالى على هذه البنات في صور متتابعة ومتلاحقة، حتى اللاتي لم تتوفر فيهن شروط العراف الثلاثة (خطوبة - جمال - ثراء)، لم أهتدِ إلى شيء، ولم أرسِ على بر أمان، وما التقطت حتى خيطاً ولو دقيقاً أسير عليه، حتى أثبت صحة أو كذب ما قاله لي العراف.

توالت الأيام وتعاقبت معها الشهور، وفي كل مرة أذهب فيها إلى العراف يؤكد لي نفس الكلام، بل وبنفس الألفاظ دون أن يغير أو يبدل شيئا فيها..



لم أشأ أن أسير وراء أوهام رجل لا يعرف ما يقول، وقررت أن أنسى الأمر برمته وأنتبه لحياتي وأحوالي، حتى كان صباح، حين هلت عليّ بوجهها البشوش وبسمتها الناعمة، وتلقفت يدي بحنان غير معهود، حتى كادت تضمها بين كفيها، وترفعها إلى صدرها الرجراج، وقالت لي في دلال غريب:

- صباح الخير يا أستاذ.......

سحبت يدي بسرعة وخرجت مهرولاً، حتى وصلت إلى المسجد الوحيد الموجود في القرية.. دخلت ولم أشأ أن أسمع تحذيرات الشيخ بضرورة خلع حذائي، لأن الأرض التي أقف عليها مقدسة، بل هرعت إلى القبلة وتمددت أمامها، حتى تراءت لي فصائل وكتائب كثيرة من الملائكة كانت تهل عليّ من كل صوب وحدب، وهي ترفرف فوق جسدي الممدد، وجاء منها ملاكان حملاني إلى أعلى.. إلى أعلى حتى اصطدم جسدي ببطن القبة الوحيدة للمسجد من الداخل، فهوى جسدي بشدة، وعندما فتحت عينيّ وجدتني بملابس العرس، وهي بملابس زفافها الجميلة، ووجوه كثيرة أعرفها جيداً تملأ المكان..

بحثت عن وجه العراف بين كل هذه الوجوه، لكني لم أره مطلقاً..



قلت لها وأنا أدعك كفها البض بأصابعي الغليظة:

- صباح الخير يا أبلة.

سرت رعشة في جسدها، وسحبت يدها برفق بعد أن علا وجهها الارتباك، ورمقتني بنظرات ذات مغزى، وراحت تسأل كل من يقابلها عن الشيء الغريب الذي أصابني، لكنها لم تجد أي جواب ينقذها من وحش الحيرة الذي افترسها بلا رحمة.

****

-إلى متى يا رب تظل تطاردني الأحلام هكذا من حلم إلى حلم؟

لم يكن هذا هو الحلم الوحيد الذي ظل يطارده طيلة فترة بعادها عنه، بل ظلت تطارده أحلامٌ أخرى نالت منه الكثير، ومن عقله الأكثر، حتى كادت تنهشه كله وتقضى على البقية الباقية منه.



لم تكن هذه هي المرة الأولى أو الأخيرة التي لم يستطع فيها التفريق بين الواقع والخيال، وليست الأولى التي لم يستطع أن يفرق بين أحلامه ليلاً، وبين أحلام يقظته التي كانت تطل من عينيه بين فينة وأخرى.

لم يستطع طيلة حياته أن يهزم أحلامه العجيبة المتكررة، التي كانت تستطيع بمهارة تحسد عليها، أن تقلب ليله الطويل إلى قاعة عرض سينمائي، تعرض فيها جميع ما كان يتمناه ويشتهيه في نهاره الأطول بكثير من ليله، ذلك النهار الذي لا يريد أن ينقضي أبداً من فرط التفكير فيها.

استحوذت على كل جوارحه، ولم تترك منفذاً منه أو إليه إلا وتسربت منه... استسلم للأمر الواقع وخضع لها وقبل إهاناتها الكثيرة، ولكنه أبداً لم ييأس منها أو من ثقته بنفسه لحظة واحدة أو طرفة عين، فعلى الرغم من تأكيدات كل من حولهما بأنها تحبه وتعشقه، وعلى الرغم من عرض قصته على كل ذي خبرة عله يفيده فيها، فقد كانت جميع الآراء تصب في اتجاه واحد فقط بأنها بالفعل تحبه.

تحبه؟ بل تحبه بجنون، إلا أنه لم يقتنع بذلك، ولم يقتنع بأنها بالفعل تحبه.. فهي لم تقل له يوماً – حبيبي، ولم تقل له يوماً إني أحبك... فكيف يكون إذن هذا الحب؟



ورغم تأكيدات نظريات علم النفس التي أفنى عمره كله في دراستها حتى حصل على الدكتوراه بها، وكذلك رغم تدريسها وتطبيقها على كل من يطلب منه النصيحة في مثل هذه الأمور، والتي قليلاً جداً ما خيبت ظن مريديه فيه، إلا أن كل هذا لم يغير من قناعاته، بأنها أبداً لم تحبه يوماً قط...

إنها الأنثى بكل تجلياتها وبكل تقلباتها، وبكل شموخها وألغازها التي حيرت غيره من الكثيرين، والتي دهستهم دوامتها التي لا ينتهي دورانها، فلماذا لا تحيره هو أيضاً، وتدهسه دوامتها؟

كيف تأتى إليه طواعية وفي استسلام مذلّ تمناه كثيراً أن يحدث، لكنه ما حدث أبداً، على الأقل من وجهة نظره هو الخاصة جداً به، وبكل دقائق حياته التي يتعامل فيها معها بكل الرقة واللين، حتى لا ينكسر وعاؤُه أو يجف ينبوع حياته، وتكون نهايته على يديها كما أرادت، أو كما تصور هو أنها تريد ذلك في مرات كثيرة...

حاول كثيراً أن يستميل قلبها البريء ناحيته، عله يرق يوماً له أو يجد لنفسه مكاناً ولو قصياً داخله، لكنه لم يفلح ولم يستسلم ...



حاول كثيراً وكثيراً لكنه لم يفلح أيضاً ... جعلته هذه المحاولات الفاشلة لا يستريح باله يوماً، ولم يذق طعم النوم الهادئ، منذ أن فارقه وجهها الصبوح وطلعتها البهية كل صباح، طيلة العام الدراسي الذي عملت فيه معه في مدرسة قريتها الإعدادية، ولم تفارق أذنيه رنات صوتها العذب، كلما قابلته وألقت عليه بتحية الصباح، التي كانت توزعها مع ابتسامتها الرائقة عليه وعلى غيره من الزملاء بلا حسيب أو رقيب.

****

- إلى متى سوف يظل لا يشعر بي أو بمشاعري الملتهبة؟!

قالتها.. وبعدها استسلمت إلى السرير، مكانها المفضل كل ليلة.

بعد أن ينفضّ مولد النهار، ويذهب أبواها إلى حجرتهما، وتخلد جميع أخواتها إلى النوم، تظل هي هكذا وحيدة تستند بجذعها على المخدة الوثيرة، وتلقي برأسها على كف يدها اليمنى، التي يستند كوعها على فخذها الأيمن العاري تماماً، وتستمر في ذرف دموعها الساخنة، حتى ينبهها صياح الديك في الخارج، فتحاول أن تخطف غفوة، تسرقها من بين دموعها الغزيرة وليلها



الطويل، حتى تعينها على استكمال النهار التالي، بما فيه من عمل وإرهاق وأشغال شاقة مؤقتة بالمدرسة والمنزل.

لكن لم تكن هذه الغفوة السريعة المسروقة من عمرها تكفي جسدها الهزيل، حتى يسترد عافيته، وتعينه على إنجاز أعمال النهار خاصة أنها تكرر نفس الفعل كل ليلة.

عندما يقابلها، كان أول سؤال يطرحه عليها:

- ماذا بك؟

- لاشيء...

- أشعر بأنك مجهدة، وأنك لم تستطيعين النوم ليلة أمس.

- صواب.. كيف عرفت؟

- قولي لي أولاً، كيف قضيت ليلة الأمس؟

- مثلها مثل كل ليلة...



- كيف؟

- الدموع تؤنسني، والوحدة طريقي الوحيد للنسيان.

- أيوجد أحدٌ يستحق منك كل هذا؟

- لقد رحل بلا عودة ....

- من؟

- لاشيء .... لا أحد.

يحاول أن يبحر في بحر حياتها المضطرب، عله يستطيع أن يعثر على مرفأ يريحه ويريح باله، من وهن ذلك الكيان الأنثوي الهش..... لا يفلح.

وعلى الرغم من جمالها البارع وملابسها الفاخرة الأنيقة، وصورة حياتها التى اعتقد أنها مثالية، إلا أنها تؤثر الوحدة وتفضلها، وتقهر جسدها بعنف وتنهكه بالسهر والسهد اللذين يؤرقاها رغماً عنها ...



حتى خطيبها الذي اعتقدتُ أنها تحبه - ولم تكن كذلك - لم يكن السبب مما تعانيه، حتى بعد أن صار زوجاً لها وأباً لابنتها الوحيدة، لم يستطع أن يغير من الأمر شيئاً، بل ربما هو نفسه زاد من أحزانها، بعد أن حاولت من خلاله أن تنسى قسوة تجربتها الأولى، التي مزقت وجدانها في طرقات الزمن المتهرئة، حتى أن كل من يسير في هذه الطرقات، يستطيع أن يلملم بعض قصاصات حياتها المتناثرة في كل مكان، ويكتشف سرها الذي اعتقدت خاطئاً أنه دفين، وقد حاولت كثيراً بكل طاقتها أن تخبئه، بعيداً عن عيون المتلصصين والمتربصين بها من أمثاله.

نجحت في ذلك، حتى قابل إحدى زميلاتها القريبات منها جداً، رغم أنها لا تكنّ لها أية مشاعر صداقة خاصة جداً، فانتهزت الفرصة وأفضت له بسر "وحيدة" الدفين، وعرف عنها كل شيء وعن حياتها، قبل أن يقابلها أو يقابل زميلتها.

عندما انفرد بها ذات مرة في المدرسة، وكشف لها عما يعرفه عنها من سيرة حياتها الأولى، لم تشفع له كلمة (أحبكِ) التي ظل يرددها عليها كثيراً، حتى تغفر له خطيئته العظمى، ونبشه في قبر سرها الخاص، وكأن سرها هذا من الأسرار المقدسة، الذي لا يجب المساس به، أو حتى مجرد الاقتراب منه ولو من بعيد... ذلك السر الذي اعتقدت أنه مات، بمجرد أن قبرته



في خزانة قلبها وأحكمت غلقه جيداً، وظلت تتحسر عليه باقي أيام حياتها بالدموع والسهر والسهد والأحزان، التي طالت جداً جداً ولا تريد أن تنتهي.

****

- في البدء كان الكلمة.

هكذا دائماً كان يحدث نفسه، وكان يتعجب كثيراً، لأنه لم يقل كانت الكلمة بل كان الكلمة؟

- الكلمة كان عنده الأنثى ... هي الأنثى "وحيدة"، التي لم يكتمل وجود الكون إلا بها ... ذكراً وأنثى...

الأنثى كانت كل شيء، وبغيرها لم يكن شئ مما كان... فعلت ما أرادت ووقعت كما تمنت، وأوقعته كما تمنت أكثر، لكن الحكم كان قاسياً على خطيئتها/ خطيئته الأولى ... موتاً يموت... وليس كذلك فقط، بل يكد ويتعب ويكسب لقمته من عرق جبينه، هكذا كانت هي، وهكذا أصبح هو.



كل شيء بالأنثى كان ويكون وسيكون، منذ آدم وحواء صارت كل الأشياء أنثى، وربما صارت الحياة هي الأخرى أنثى، تريد أن يضاجعها كل يوم، حتى تمنحه الحق فيها ليوم تالٍ، فإن توانى عن مضاجعتها في إحدى الليالي، لن تطلّ عليه شمس اليوم التالي، تلك الشمس التي هي الأخرى أنثى بوهج وروعة وجمال" وحيدة"، فلم يكن بين النساء مثيلتها.

- مباركة أنتِ بين النساء يا "وحيدة"، فلقد اختارك قلبه حتى تكوني رحماً لجنينه الآتي للحياة بدون أب شرعي!... مشروع هذا عنده، وكل شيء في حبك يا "وحيدة" مباح .

تتآمر الشمس مع الحياة، ومع كل ما من شأنه أنثى في هذه الحياة، ومعك أنت يا "وحيدة"، وأيضاً اشترك معكم الزمن والدنيا بأكملها لوقيعته، وقد حدث ووقع ولم تكتف بذلك، بل حرمته من نور عينيه "وحيدة"، تلك التي كان يطل بها على العالم كله، ويخترق بها الكون بأسره .

بين وميض وبريق ووهج "وحيدة"، وبين انطفاءات لا تنتهي لجسده المنهك في فوضى معارك خاسرة، مع ظل الأنثى التي تطارده ليل نهار، في صور وأشكال متنوعة تتشكل حياته، وتكتمل سنون عمره إلى ما لا نهاية من الإحباطات المتكررة والهزائم المتوالية.



يحاول أن يبحث عن ثدي مثل ثديها بين جميع النساء، اللائي قابلهن في مشوار عمره الممتد، منذ مولد قلبه البريء في حدائق المشاعر البكر، وحتى شيخوخته المبكرة في صحراء حياته الخالية من أي شيء أنثوي.

بعد رحيل "وحيدة" لم يجد ذلك الثدي، الذي كشفت له عنه خلسة ذات جلسة معه بتعمد واضح منها، حتى يذهب بريقه ووهجه بالبقية الباقية من عقله الذي طار، وحلق في فضاء "وحيدة " الذي لا نهاية له.

حاول أن يطل بعينين مثل عينيها بين كل نساء الأرض ... حيرته أوصافهما الملائكية وطبيعتهما الشفافة، التي لم تساعده على الوصول إليهما، وعبثاً حاول أن يجدهما، ولكنه لم يجد منهما شيئاً على الإطلاق... تلك العينان اللتان تكحلتا بوميض مبهر وبريق غريب، حينما انفرد بها وقال لها دفعة واحدة:

- أحبك يا "وحيدة".



وحيدة هي رغم زخم الحياة من حولها، وضجيج محبيها الكثيرين الذي يملأ أذنيها بطنين مقيت، لم تفلح في استمالة أذن من أحبته دونهم جميعاً، فكان انتحارها الأول والأخير على يد من تقدم للزواج منها.

مرغمة وافقت، منساقة بنداء خفي شبكت يديها بدبلة زواجه، وأطبقت على معصميها أساوره الذهبية، التي لم تفلح قط في فك أسر وحدتها الأزلية.

حتى هو - زوجها - لم يستطع أيضاً أن يملأ الفراغ الذي تركها فيه، ولم يفلح أيضاً في كسر السياج الحديدي الذي أحاط بروحها، منذ أن جرحها حبها الأول جرحاً نزف، وما زال ينزف.

حتى ذلك النبت الذي أخذ يتشكل في أحشائها منه، لم يفلح هو الآخر في إيقاف نزيفها المستمر .

****

- إلى متى يا رب سوف تظل " وحيدة" هكذا...؟



وحيدة هي طوال سنوات حياتها ... لم تجد الرفيق أو الأنيس أو الجليس الذي يستطيع أن يملأ مساحات فراغ شاسعة داخل روحها، التي تكاد تحطمها وتجهز عليها تماماً ...

حتى عندما حاولت أن تستأنس بأعضائها البكر التي نبتت في غير موعدها، ونضجت قبل الأوان بأوان، وهاجمتها الدورة الشهرية دون بنات جيلها، لم يفلح ذلك أن يكسر سياج الوحدة والعزلة التي تسجن روحها فيها أكثر وأكثر، كما حاول ابن الجيران الذي تحسس هو الآخر أعضاء رجولته في نشوة غريبة، كم حاول أن يطلعها على الفرق بينه وبينها، فجرجرها خلفه حتى صعد بها إلى سطح منزله الطيني، وكانت ليلة أطلت فيها نسمات خريفية جافة، وحاول على الطبيعة أن يريها هذه الفروق بينهما، وقد كانت تصدق كل ما يقوله، لأنه كما تعرف عنه يقرأ كثيراً ويثقف نفسه كثيراً، وهذه شهادة الجميع له وليست شهادتها هي فقط، وكادت تصدق أكثر، عندما حاول إقناعها بأن مقاس شفاهه تطابق تماماً مقاس شفاهها... لم تمنعه من التحقق من ذلك عملياً، وصدقت أكثر عندما تطابقت بالفعل كل من شفاهه وشفاهها، وراحت معه في نشوة غريبة لم تعهدها من قبل، وبنظرات بريئة راحت تقبل منه تبريره الإلهي، بأن الملائكة وهم يصنعونهما قبل أن يولدا أخرجوا نسختين طبق الأصل، نسخة على هيئة أنثى فكانت هي، ونسخة على هيئة ذكر فكان هو.



هكذا حاول أن يفهمها الكون وخلقه كما يريدها أن تفهمه، وأن الكون خُلق هكذا ولم يخُلق إلا هكذا، حتى عندما اعترتها نبرة شك جالت بذهنها البسيط بشكل عابر جداً حول تفسيره العجيب للكون وخلقه، أطلق في وجهها سؤالاً عجز تفكيرها المحدود ليس على الإجابة عنه فقط، بل على حتى مجرد استيعابه بهذا الشكل، وعندما طلب منها تكرار ما حدث معهما منذ قليل حاولت منعه، فكرر عليها سؤاله العاجز بحدة:

- لماذا أحببتني ولم تحبي غيري، وإن كنت قد أحببت غيري، فلماذا لم تحبيني؟

فغرت فاهها وراحت في غفوة لم تدم طويلاً، وارتمت بين أحضانه متناسية كل شيء حولها، لكنها أفاقت وعادت إلى وحدتها الأثيرة، وأيقنت تماماً أن ما تفعله لم يؤنس وحدتها الأبدية، فاتخذت قرارها الحازم بصده ونهره، والوقوف بشدة أمام تيار شهواته الهادر الذي تمادى فيه أكثر وأكثر، حتى أنه وصل إلى محاولة إقناعها بالدليل القاطع، على أنهما لم يخلقا إلا لبعضهما.

عندما حاول أن يفهمها أن مقاس بروزه الذكري يطابق تماماً مقاس تجويفها الأنثوي، عندها، وعندها فقط ارتعدت فرائصها، واهتز جسدها الممتلئ بعض الشيء بشدة، وانهمرت في



بكاء طويل لم يجف سوى في ليلة زفافها على غيره، عندما تخلى عنها حينما أرادت ولو لمرة واحدة أن تثبت له عملياً ونظرياً أنهما بالفعل لم يخلقا لبعض.

لم تعد تصدقه في شيء، ووجدت صعوبة شديدة في تقبل زوجها كرجل، حينما كانت تستدعي من مخزون ذاكرتها الهشة ما كان يفعله معها، لكي ينهل من كنوز جسدها بلا رحمة أو هوادة، واكتشفت أخيراً أن كل نظرياته عن صنع الملائكة للبشر نسختين من ذكر وأنثى، تحقق بشكل كبير جداً فقط مع زوجها... نعم زوجها فقط، الذي حاولت أن تحبه بعد أن نظفت روحها من شوائب تجاربها القاسية الأولى معه...لكن أبداً لم يتحقق لها حلم الخروج من شرنقة وحدتها الأبدية.

****

- لم أكن أعلم أن كل ذلك من الممكن أن يحدث بهذه السرعة...لم أكن أعلم أنني عندما ذهبت إلى منزله، بأنني وقّعت بكامل إرادتي على صك تنازل مني كي يملك جسدي...لم أكن أعلم أنني عندما أخبرته بأنني لا أريد أن أكون "وحيدة" أخرى في حياته، بأنني بذلك سلمت له مفاتيح أنوثتي... لم اكن اعلم حتى عندما قلت له أحبك، وكانت تعلو هامتي صورة زفافه



على من أحبها أكثر مني ومن "وحيدة" نفسها، أنني سلمت له بكارة عواطفي ووهج وجداني الطفولي .

أتذكر جيدا ذلك اليوم عندما اصطحبني معه لكي يريني شقته، أو كما قال لي وقتها مملكته الخاصة، ووضع يده بتردد على ظهري، منتظراً رد فعلي، فسرت رعشة غريبة في جسدي كله ألجمتني، وجعلتني لا أعرف كيف أتصرف حياله؟

كاد يحدث لي انهيارٌ كامل وأركع على قدميه، لكن بعض أعصابي التي لم تفلت مني بعد أن استجمعتها من حوادث صديقات كثيرة وقعن في نفس الفخ الذكوري الرهيب، ومرت بذهني بسرعة البرق في تلك اللحظة تماماً، حالت دون سقوطي وانهياري أمامه، رغم أن قدميّ كانتا تحملاني بالكاد.

الغريب في الأمر، أنه عندما استعرض أمامي غرف شقته أو مملكته، لم يتوقف كثيراً أمام غرفة نومه هو وزوجته، على الرغم مما كان فيها من إثارة لجسدي الأسمر الفائر، فقد كانت تتناثر على سرير نومه قطع ملابس زوجته الداخلية السوداء، وقميص نوم روزي اللون، كان يقول عنه كثيراً إنه من مشهيات جسد زوجته الأبيض البض.



عندما شعر بما بي وبما حدث لي دون دراية مني، أمسكني من يدي وأجلسني قبالته، وأخذ يحكي لي عن "وحيدة"، وحياتها التي كساها السواد منذ أن هجرها حبيبها الأول "محب"، وهي لم تعد تعرف بوصلة لطريقها تهتدي بها في مشوار حياتها، الذي ازداد صعوبة ببعده عنها، وبخطوبتها من آخر كانت ترى أنه كان آخر رجل في الدنيا من الممكن أن ترتبط به.

تركته يحكي ويحكي، فأنا أعلم أنه يحب أن يحكي كثيراً عن "وحيدة"، وانتهزتها فرصة ذهبية وأنا أجاهد، لكي أسيطر على جموح وصهيل فرس شهوتي الذي أخذ يعربد داخلي...

حاولت جاهدة وقدر إمكاني أن أتجنب وصول هذا الإحساس بفرسي الجامح إليه، حتى لا يلتهمني بسهولة، فكثيراً ما كان يقول لي، أعلم تماماً أن لحم الأنثى البكر السمراء أشهى وألذ لمن يلتهمه ...

لم أجد في عينيه نظرة حب واحدة لي، أو حتى نظرة عطف على قلبي المنكسر، أو وجداني المحطم أمامه، أو حتى نظرة شفقة على جسدي الذي أصابه الكثير من الهزال جراء التفكير فيه، ورفضي المستمر للمحاولات المستميتة لكل من حولي، كي أذهب إلى طبيب متخصص يفحصني ويريح ذلك الجسد المنهك، لكن حال دون تحقيق هذه الرغبة خوفي



الشديد، من أن يتجاوز الطبيب الكشف عن الجسد، ويكشف عن غشاء بكارة عواطفي الذي فُض بعنف عندما أحببته، فيرصد الطبيب آثار احتكاك صورة وجوده الذكري بمدخل وجداني الذي امتلأ عن آخره بمنوياته التي لا ترحم، حينما يعلن الطبيب لأهلي، أن ما بي ليس لأسباب عضوية، بل لأسباب نفسية...

في ذات الجلسة ظل لون سماري يضغط على شهوته بقوة، حتى قام من جلسته وتخلى بسرعة عن وقاره المصطنع، وحملني برفق من أسفل إبطي رغم وزني الثقيل، الذي كنت أحاول ضبطه عند طبيب التخسيس، وأسند ظهري على الحائط، وما زالت صورة زفافه على من أحبها أكثر مني ومن "وحيدة" نفسها، تعلو هامتي، وتنخر فراغ رأسي بوحشية ...

اِلتهم فمي بنهم غريب، وأخذت يده تعبث بصدري النافر بلا رحمة، حتى انهرت تماماً، ولم أجد أية مقاومة داخلي أستطيع بها أن أوقف أمواج رغبته الهادرة، ولم أستطع حتى أن أوقف يده التي زحفت بمهارة المتخصص، وفتح بها سوسته" الأستريتش" الذي أفضل ارتداءَه، حيث يجعل جسدي بالصورة التي أرغب أن أكون عليها في عيون الرجال، وخاصة في عيون حبيبي الجائعة دائماً.



حاولت أن أنقذ ما يمكن إنقاذه، بأن أعطيه ظهري حتى يكون إيلاجه لي من الخلف حتى لا افتضح، فأنا أتمنى أن أُسلم عذريتي لمن سوف يثق بى ويتزوجني، ولكن صورة زفافه كانت في مواجهتي تماماً، وكنت لا أطيق أن أنظر إلى وجه زوجته الوديعة، وكنت أشعر بأن الصورة سوف تهوي على رأسي، أو أنها سوف تنتزع منى هذه اللحظات التي سرقتها من زوجته، فأعود مسرعة مرة أخرى لكي أكون في مواجهته، وأجدني ألقي بكل جسدي في حضنه، واحتضنه بقوة عجيبة حتى لا يفر من بين يدي ...

لم يُبدِ هو أي اندهاش أو انزعاج لتحولاتي أمامه، فكان فعله الذكري مستمراً سواء من الخلف أو من الأمام، حتى وصل إلى قلبي الأنثوي، كما وصل من قبل إلى قلبي الأعلى وأجهز علي تماماً، بعد أن كان يحذرني من مغبة التصرف بأي سلوك مفاجئ قد أفقد معه عذريتي، فسلمت له كل شيء بكامل إرادتي وبدون وعي مني، ذلك الوعي الذي بددته وخزات ذكورته التي كانت تقبل وتدبر في قلبي الأنثوي بمهارة فائقة، وتدريب اعتادت عليه ذكورته كثيراً، حتى جاء فيضان منوياته وأغرقني تماماً... تخلت عني شجاعتي في هذه اللحظة، كما تخلت عني نهائياً في لحظات مماثلة أتت بعد ذلك كثيراً، وانهارت قواي واستسلمت لأريكة صالونه غير المريحة، ورحت في غفوة لم أعرف هل طالت أم قصرت؟!



عندما أفقت وجدت شعوراً جديداً يغمرني، وإحساسات لا أستطيع وصف حلاوتها تملؤني بنشوة عجيبة حقّا، واكتشافات مذهلة أطارت النوم من عيني في هذه الليلة وليال كثيرة بعد ذلك.

- ما الذي يريده الإنسان من حياته؟

أنا لا أعرف حقيقة مشاعري نحوه، ولكنني أعلم تمامًا حقيقة مشاعره نحوى...لماذا تفعل صديقتي ما تفعله معه؟ ولماذا تقبل على نفسها هذا الوضع المهين لها ولأنوثتها؟

ماذا يريد هو مني؟ ... نعم ماذا يريد هو مني؟ ماذا يريد .... ماذا يريد .. ماذا يريد؟؟؟؟؟



رأسي يكاد ينفجر من فرط تزاحم الأسئلة... تضيع إجاباتها في متاهاتي التي لا تنتهي، ورغم أنني لم أقضِ معه وقتاً طويلاً، إلا أنه استطاع أن يتسرب إلى شراييني وأوردتي، ويحرض سلطان النوم على هجر جفوني ويؤرق مضجعي بلا رحمة ...

لم أفق بعد من حبي الأول/ العظيم، أو ما كنت أظنه عظيماً، والذي تحطم على صخرة واقع مؤلم لا يرحم أحداً، فحبيبي الذي لم ولن أحب سواه، كان رقيق الحال والحياة، متواضع الأصل والمنشأ، وكلها أشياء لم تقوَ على الصمود والمقاومة أمام طوفان العرسان الذي عصف بى وبحياتي وبه أيضاً، حتى جاء أحدهم وبلا مقدمات خطفني منه، وتناثرت أحلامي أشلاء في جميع أنحاء روحي ووجداني الذي لم أعد أمتلكه، حتى جاء هو الذي لا أعرف ماذا يريد مني تحديداً؟ أثناء فترة خطوبتي على أحد الذين سقطوا من شلال العرسان، الذي كان يداهمني بين فينة وأخرى، ذلك الذي اشتراني بطيبته التي يتحدث عنها أهل البلد كلها إلا أنا... وعن هدوئه المشهور عنه ونبوغه العلمي، وحصوله على بكالوريوس الصيدلة بتفوق باهر، وأخيراً اشتراني بماله الذي كان له سحر خاص في إنهاء جميع الإجراءات بأقصى سرعة ممكنة.



جاء هو، واستغل ضياع حبي وتيه حبيبي في دروب لم أعد أعرف مسالكها، واستغل غياب خطيبي في بلاد النفط ليجمع المزيد من المال، حتى يقوى على ثمني الباهظ، ودخل إلي...

نعم دخل إليّ من ثقب صغير جداً في جدار قلبي، كنت أجاهد كثيراً وأنا معه أن أسده أمامه، ولكنه اخترقه واخترقني ... لا .. لا أعرف هل اخترقني حقاً أم لا... لكنه نجح بذكاء غير عادي أن يستثمر الأوقات القليلة التي قضاها معي...وأنا أعمل في تدريس مادة العلوم في المدرسة الإعدادية بقريتي، أن يصنع الكثير من الذكريات التي طُبعت في ذاكرتي، ونُحتت في وجداني، ولم تبرحني قط.. لم أعد أعرف هل هذه الذكريات حقاً جميلة، أم هي محايدة، أم هي ذكريات ومشاعر سيئة؟

تروس الأسئلة تطحن عقلي، وتكاد تلغي ذاكرتي كلها، فمشاعري نحوه لا أعرف لها لوناً أو طعماً أو رائحة، وإحساسي مات مع موت حبي الأول، ولم يستطع خطيبي وزوجي فيما بعد أن يعيد الحياة أو بعض الحياة لإحساسي المتوفى منذ زمن... هذا قدره، وإن كان هو قد ألقى بنفسه فوق جثة إحساسي الهامدة، ليقبله قبلة الحياة ... لا أنكر أنني أفكر فيه كثيراً، بل أكثر من خطيبي، وأكثر من تفكيري في حبي الأول المهدور دمه على شريعة مجتمع لا يرحم



... وأفكر فيه أيضا أكثر من رفات إحساسي الراقد في مقبرة ذاتي...لا استطيع أن أنكر أن صورته لم تعد تفارق مخيلتي ... هاجمني بكل أسلحته ... أصاب نيشانه جميع مناطق أنوثتي التي إنهارت أمامه، رغم محاولاتي المستميتة للتماسك، ورغم نجاحي في ذلك إلى حد ما، إلا أنني أشعر بأنني منهزمة وتماماً، خاصة أمام إصراره العجيب على أنني أحبه.

لا أعرف من أين جاء بكل هذه الثقة، رغم تأكيداتي المتوالية والمباشرة بأنني أبداً لم أحببه، وأن ما يشعر به نحوي هو محض خياله المريض ...

ورغم أنني لم أعطه كلمة واحدة تشير لا من قريب ولا من بعيد لما يصر عليه، وحتى أني ما نظرت إليه ذات مرة نظرة ذات مغزى، من الممكن أن ينسج حولها ما يريد من ثوب يريد أن يلبسه، لطبيعة العلاقة الجادة بيني وبينه ... يعود ويؤكد أنني أحبه، رغم أنني حتى لم أسلمه أي مفتاح من مفاتيح أنوثتي، أو أفسح له درباً ولو ضيقاً جداً للوصول إلى مقبرة إحساسي.

لا أعرف من أين يأتي بهذه النبرة الحادة وهذا اليقين القاطع، بأنني بالفعل أحبه؟



لا أنكر أنني وقعت في أخطاء ليست بالكثيرة، قد تكون هذه الأخطاء هي التي جعلته يتسلح بهذا اليقين، وهو يشهر كلماته في وجهي، كلما رآني وشجعته أكثر، وحمسته على اقتحامي، وشن هجومه الضاري على مشاعري وأحاسيسي ...

وافقت على طلبه الملح بأن يأخذ صورتي الوحيدة، التي جمعتني مع مدرستي الأولى في مادة العلوم، والتي التقطها لنا أحد الزملاء في معمل العلوم في إحدى المناسبات، التي يتم الأرشفة لها داخل المدرسة.

لكني، لم أكن أعلم أن موافقتي على طلبه هذا، سوف تجعله يتجرأ علي بهذا الشكل السافر، ولم أكن أعلم أن إجابتي عن سؤاله الذي تلا طلبه:

- هل أي شخص يطلب منك صورتك، تعطينها له هكذا ببساطة؟

- وهل أنت أي شخص؟

لم أكن أعلم أن هذه الإجابة هي المفتاح السحري الذي مكنه مني، ومن الدخول إلى عالمي الخاص، وقيامه بدكّ جميع حصوني التي ظللت مدة طويلة أشيدها، وأقويها ضد أي معتدٍ بعد وفاة حبي الأول.



لكنني ما زلت أؤكد لنفسي وللجميع، أنني لم أشعر نحوه بأية مشاعر خاصة، ولم أفكر فيه بطريقة عاطفية، لسبب واحد بسيط جداً جداً، حيث إنه متزوج ولديه ابنة جميلة، شاهدتها في إحدى المناسبات الاجتماعية التي جمعتني معه وأسرته الصغيرة.

نعم لا أنكر أيضاً أنني قبلت منه هديته الجميلة، نعم الجميلة التي أهداها لي في عيد ميلادي الذي يحل في غرة مارس من كل عام ...

لم أستطع أن أقاوم إغراء وهج حروف اسمي (وحيدة)، التي كتبها بنبضات قلبه، وملأ تجويفها من دمه الساخن الذي شعرت بسخونته، عندما انفرد بي في أحد أركان المدرسة البعيدة، واعترف لي بحبه، وأخذ بعدها يتحدث كلاماً عجيباً لم أسمع منه أي حرف، لأنني كنت مخدرة وأحيا في حالة نشوة غريبة، حتى أنني لم أشعر به وهو يلتقط بمهارة فائقة الدبوس الذي أشبك به جيبتي (تنورتي) من الخلف، ووخزني بشدة حتى انفجر الدم من يدي، ثم بعد ذلك وخز نفسه أيضاً، ووضع إبهامي الملطخ بدمي على إبهامه الملطخ بدمائه، وأخذ يدعكهما بشدة حتى اختلاط دمائنا معاً، وبعد ذلك أخذ يلعق إبهامي بنهم غريب وقال:



- إنني بذلك تزوجتك، ودماؤك الآن تجرى في عروقي، فلن تستطيعي أن ترحلي عني، لأنك مسافرة في شراييني، مثلما أنا أصبحت مسافراً في شرايينك وفى كل كيانك...

الغريب، أنه فعل كل ذلك في المدرسة، والطلاب والطالبات والمدرسون يذهبون ويجيئون حولنا..!

كنت مشتاقة إليه ... مشتاقة جداً... مخدرة... مسلوبة الإرادة والوعي.. استطاع أن يسرقني من نفسي ومن روحي... حتى آخر يوم عمل لي في المدرسة، حيث إنني كنت أعمل فيها بنظام الحصة، ولم يكن تعييني أساسي فيها.

وجدتني دون تفكير أو إرادة ألبي طلبه في تجهيز الطعام، الذي حدده لي بالضبط، عندما علم مني أنني أنوي القيام بعمل وليمة لجميع العاملين في المدرسة، بمناسبة نهاية العام الدراسي (مكرونة بشاميل – بوفتيك)... قمت بطهيهما بنفسي، رغم مساعدة أمي وأختي الصغيرة لي في إعداد الوليمة، ورغم أن السكين جرحني جرحاً غائراً في نفس المكان الذي وخزني فيه بدبوس جيبتي.

لم أعد أعبأ بنظرات أمي وأختي وتساؤلهما المُلح:



- لماذا تهتمين كثيراً بهذين الصنفين دون سواهما من أصناف الوليمة؟

لم يكن هروبي من الإجابة خوفاً من افتضاح أمري، أو انطلاق مشاعري من سجنها الأبدي وتحلقيها في سماء الحرية، ولكنني بالفعل لم أكن أملك أية إجابة...

أنا حائرة... ضائعة... تعسة.. نفس الكلمات التي تساقطت رغماً عني في أحد لقاءاتي القليلة معه، وتناولها هو بمهارة المحترف، وأخذ يبني عليها خطة هجومه علي ...

لا أنكر أيضاً أنني مازلت أحتفظ حتى الآن بشريط عبد الحليم حافظ، الذي أهداه لي كرد جميل على الوليمة التي دعوته إليها، وأعطاه لي بعد أن تناول طعامي، وطلب من صديقتي السمراء أن تخبرني بأنه ينتظرني أمام معمل العلوم، الذي يقع في مبنى المدرسة من الخلف، وهو مكان قصي بعيد عن الأنظار المتطفلة.

وجدتني دون وعي مني أجري نحو معمل العلوم، متجاهلة جميع نظرات الاستنكار والاستفهام، التي طلت من عيون جميع زملائنا الذين جمعتنا معهم وليمتي، ورغم رفضي الظاهري لأخذ الشريط، إلا أنني وجدتني ألتقطه منه واضعة إياه أسفل بلوزتي حتى لا يراه أحد معي، غير مبالية بالجزء الذي انكشف أمامه من بطني ... قال في عجالة:



- أنا مازلت عند كلامي بأنك تحبينني، فلا تحاولي الهروب، وهذه آخر مرة أراكِ فيها، فحبك لي يجري في عروقك، وهذا الشريط لعبد الحليم حافظ الذي أحبه كثيراً، وأعلم أنك تحبينه أكثر مني، يحتوي على أغنيتين هما (أي دمعة حزن لا - خسارة خسارة)، الأولى لك وأتمنى ألا تبكي بعد ذلك، فيكفي قلبك البريء أنني بداخله، والأغنية الثانية لي، فخسارة خسارة فراقك يا "وحيدة".

بعدها لمحت ثمة دموع تترقرق في عينيه، وحاول جاهداً أن يقبض عليها ويحول دون هروبها من مقلتيه، لكنها هربت أمام عينيّ ... جرأة واقتحاماً وتسلطاً على بطريقة مستفزة!

كل هذا، وأنا مكتوفة الأيدي قليلة الحيلة، لا أعرف ماذا أفعل لأوقف جريان طوفانه نحوي؟

عصفت بي مشاعره الحارقة، لكنني ما زلت أجهل حقيقة مشاعري نحوه؟

خدرتني كلماته، وأدخلتني في سبات غريب واستسلام مشوب بنشوة جميلة، لم أفق منها إلا عندما وضع صورته في يدي وضمها على صدره، وطلب مني أن أقبلها منه، ولكنني وجدتني هذه المرة أرفضها بشدة، رغم أنني قبلت منه كل شيء قبل ذلك، ولكنني لم أعرف



من أين جاءت لي الشجاعة والجرأة على رفض قبول صورته، التي بمجرد أن وضعها في يدي شعرت برعشة شديدة هزتني بقوة!

- ماذا يقول أبي أو أمي أو أي أحد من أخوتي، عندما يجدون قلبي وقد دهسته هذه الصورة؟ ماذا يقول خطيبي، إن لم أستطع التخلص منها قبل زفافنا المنتظر بعد أشهر قليلة؟

لأنها غالية جداً عندي، لن استطيع التخلص منها بسهولة، عندما يجدها في عش الزوجية.

... ذهب العام الدراسي وذهب هو... ولكن، تبقت لي معه الذكريات التي لا أعرف هل هي جميلة أم مؤلمة.

****

- خذي هذه هي صورتي للذكرى؟

رفضت أن آخذها منه رغم وجود غُصة في حلقي، وجفافاً في ريقي الذي وجدت في ابتلاعه صعوبة شديدة، ولم ينقذني من هذا الموقف سوى استدعاء المدرسة الأولى في طلب



استعجالي، للذهاب إلى حجرة التصحيح، للانتهاء مبكراً لتصحيح ما تبقى من أوراق إجابات الطلاب.

ذهب العام الدراسي وذهب هو ... وذهبت معه كل الأشياء الجميلة، ولم يتبق لي سوى حفنة ذكريات تدهسني دهساً كلما مرت بخاطري... انتهت الأيام ولم يتبق سوى القليل منها على زفافي.

نشوة عجيبة وأنا أقوم بالإعداد والتجهيز لهذا الزفاف، فانتشيت بالفرحة وغمرتني السعادة مثل أية بنت تنتظر هذا اليوم بفارغ الصبر، بصرف النظر عن زواجها بمن .

المهم الآن التركيز حتى يصير حفل الزفاف كما تصورته دائماً ... آه آه ... تصورته معه ... معه هو فقط... سحبني من نفسي برفق... اتصاله التليفوني المفاجئ ... سرق مني رغماً عني سعادتي الظاهرة ... فأنا منشغلة جداً في هذه الأيام ... فالوقت ضيق جداً ... فنحن في أغسطس وزفافي حُدد له يوم الثاني عشر من سبتمبر، وأمامي الكثير لم أنجزه بعد...



جاءني صوته مشحوناً كعادته معي بعواطفه الجياشة التي لا أخطئها أبداً، مستفسراً عن موعد زفافي، ومستنكراً عدم دعوته لحضور زفافي حتى الآن، فهو يتوق – كما كان يقول لي دائماً في الأيام الخوالي- لحضور يوم زفافي، حتى أنه قال لي في التليفون:

- لو كنت في يوم زفافك محمولاً في نعش على الأعناق وبه آخر أنفاسي، سوف أطلب من حاملي نعشي أن يتوجهوا أولاً إلى حفل زفافك، وبعد ذلك يحملونني إلى حيث يشاؤون.

أيقظت كلماته الساخنة مشاعري الرمادية، والتي أصبحت تميل ناحيته قليلاً، إلا أن الخوف والرعب اللذين يملآن قلبي ضغطا علي، لكي أرتد إلى صوابي مرة أخرى...

سؤال ساذج هاجمني به كعادته معي ولم أجد له إجابة بالفعل:

- هل ترين لو أنك غير مخطوبة وأنا غير متزوج كيف كانت ستكون العلاقة بيننا؟



حقيقي لم أعرف لهذا التساؤل إجابة بداخلي، فأنا قبل أن أعرفه كنت أحب شخصاًَ آخر، وحتى عندما عرفته كنت أعاني من موت حبي الأول والكبير داخلي، وكنت أيضاً مخطوبة كما يقول فكيف أرد عليه؟ وكيف يريد مني إجابة عن سؤاله هذا؟

لعل نظرتي النارية التي رمقته بها، عندما وجدته فجأة بين صفوف المدعوين - رغم عدم دعوتي المباشرة له – في حفل زفافي، تكون إجابة شافية عن تساؤله الساذج، وإن كنت أتمنى ألا يكون قد فسر هذه النظرة لصالحه تماماً، ولصالح مشاعره المتوهجة نحوي...

مرت الأيام ومعها السنوات ورغم عدم معاودتي للعمل، أو للذهاب إلى المدرسة مرة أخرى، وانشغالي بحياتي وبابنتي الجميلة التي أنجبتها بعد آخر مرة رأيته فيها، إلا أنني وجدته يسطو على مشاعري وعلى حياتي وعلى قلبي الذي لم أعد أمتلك فيه أي جزء، وحتى ذلك الثقب الذي نجحت في سده أمامه، الذي حاول أن يستغله للنفاذ إلى لم أعد أمتلكه ...

استغل سذاجة وطيبة قلب صديقتي السمراء، وأخذ يجندها لحسابه ويرسلها لي برسائل غريبة في منزل الزوجية... كانت تأتي لي كثيراً وتخبرني بكل ما كان يريد أن يقوله لي...



كنت أحاول أن أمنعها من مواصلة هذا الدور الغريب عليها، ولا أعرف لماذا توافق على ذلك هي وتفعل ذلك من أجله؟ لم أعد أعرف لماذا تفعل هذا؟ كنت أؤكد لها كثيراً أنني لا أعرف ماذا يريد مني؟

ليته يتركني وحالي ووحدتي الأبدية التي تمكنت مني أكثر وأكثر بعد الزواج...

رغم زوجي الحنون وابنتي الجميلة وأهل زوجي الذين يحبونني أكثر من ابنتهم، إلا أنني مازلت أشعر بنفس الوحدة، وليس كذلك فقط، بل أشعر بها وبقسوتها أكثر من أى وقت مضى ...

أخشى أن تكون هي المنفذ الجديد الذي يريد أن يتسرب إليّ منه...ساورني الشك في حقيقية مشاعر صديقتي السمراء نحوه، فأنا أعلم كم هو فذ في خطف قلوب العذارى المسكينات اللائي لا حيلة لهن... فمن الممكن أن تكون قد سقطت في بحر هواه وغرقت فيه أيضاً، فالثمن الذي تدفعه كبير وغال في هذا الدور، الذي تقوم به معي من أجله ... من أجله هو فقط.. مع الأيام والوحدة والتفكير قد يتحول شكي إلى يقين، وربما هو الآن في داخلي يقين، بالفعل يقين.



****

- ليس مهماً أن أعرف حقيقة مشاعرها نحوي، لكن مهمّ جداً أن أعرف حقيقة مشاعري نحوها.

أنا الآخر في حيرة من أمري، ولا أعرف هل أحببتها، أم ما زال قلبي نابضاً بحبها؟ فقلبي لا أملكه، ومشاعري هوجاء لا تعرف لها وطناً أو ديناً أو عرفًا...

شوهتني التجارب العاطفية وغير العاطفية، ومزقت وجداني وإحساسي... الشهوة تسيطر عليّ وتمرح في روحي مثل خيل جامحة، لا يستطيع أحدٌ أن يلجمها، والتفكير في الأنثى – بدعوة استكشاف مناطق جديدة في عقلها وقلبها وجسدها، لم يستطع أحدٌ قبلي أن يكتشفها – يكبلني، ويحد من رؤيتي للأشياء على حقيقتها...

سلمني التفكير العميق في المرأة بكل درجات حسنها وجمالها وتضاريسها إلى حالة سيكولوجية نادرة الحدوث، هكذا شخّص حالتي أحد الأطباء النفسيين المشهود لهم بالكفاءة، عندما كنت أتردد عليه لكي يساعدني حتى أتبرأ من هوسي بالأنثى ...



ما زال شبقي يؤرقني، ولعابي يسيل وفراشي يهجرني، كلما أطلت عيني على نهد نافر، أو نخذين تعريتا دون قصد من صاحبتهما، أو حتى عندما تقع عيني على كعب قدم امرأة بيضاء لا تطيق ارتداء الجورب...

وما زال هذا الهاجس يطاردني طيلة سنوات عمري المنفلتة من بين يدي، كبخار نهار صيف قائظ، منذ أن حاولت جارتنا الجميلة استدراجي إلى مضجعها الذي هجره زوجها إلى بلاد الوحشة والضياع، بعد أن أغرتني "بكوز ذرة مشوي/ ساخن" الذي أعشقه كثيراً.

ما زال عالقاً بذهني جسدها الأبيض الشفاف، ونهدها البلوري الذي تصورته يوماً، أنه ليس من الممكن أن يكون لحم بشر، بل قطعتا كريستال مصنوعتان من أنقى أنواع الزجاج ...

وما زال لون قميصها الأحمر وهو يتلاقى في حوافه مع حواف جسدها الأبيض الرجراج، يكاد يذهب بنور عيني المنطفئة بطبيعتها من كثرة القراءة..

لم أعد أتذكر كيف انتهى اللقاء بيننا وقتها، ولكن ما زال اللون الأحمر يثيرني كلما رأيته، حتى لو كان لون غلاف كراسة واجب العلوم البلاستيكي، تلك المادة التي كنت أحبها وأحب



معلمتها البيضاء كلما غمزت لي، فهي تزعم أنني أذكى تلميذ عندها، وتتعمد أن تلكزني في صدري بين الحين والآخر، حتى تثبت لزملائي صحة زعمها، وأيضاً، حتى أجيب عن أسئلتها التي لم تكن تمل من إلقائها علي، ثقة منها أيضاً، أنني الوحيد في الفصل كله الذي يستطيع أن يجيبها، أو هكذا كان يخيل لها ...

كانت تستبقيني بمفردي بعد انتهاء الحصة وخاصة يوم الخميس، حيث كانت حصة العلوم هي آخر حصة لنا في اليوم الدراسي، وبعد أن نتأكد من أن الجميع قد رحلوا إلى منازلهم، كانت تلقي بجسدها البض عليّ، وتقبلني بنهم غريب لم يستطع عقلي الصغير وقتها فهم ما يحدث لي، وحتى عندما كبرت لم يستطع عقلي أيضاً أن يفهم السر، بين حب معلمة العلوم لي وأنا صغير، وبين معلمة العلوم التي أحببتها كثيراً عندما كبرت ...

ما زالت ذاكرتي مختزنة بقوة محاولات معلمتي للانفراد بي ظهيرة كل خميس، وكانت في كل مرة تنفرد بي تخدعني بحجة تعديل ملابسي وهندمتي، حيث إنها لا تراني إلا جميلاً، وهذا الجمال لا يكتمل كما تزعم إلا بالثياب المهندمة، وكانت بمهارة ودربة عجيبة تجر بسهولة (سوسته) بنطالي الجينز، وتعبث فيما هو موجود خلفها، وسط ضحكاتها الصاخبة التي كانت تكاد تهز جدران الفصل.



وفي إحدى المرات وبينما هي كعادتها معي، تهيل عليّ قبلاتها في كل جزء يقابلها من جسدي البدين، ويدها المتمرسة تعبث بعضوي، دخل علينا عم "مصطفى" فراش المدرسة، لكي يقوم بمهمته في تنظيف الفصول، وبمجرد أن رأته داخلاً علينا، حتى سارعت بسحب يدها من فتحة البنطلون بخفة ومهارة عجيبتين، وقالت له بغيظ واضح:

- أنت رجل لا تعرف الذوق... ألم تتعلم طوال أعوامك الخمسين التي قضيتها من حياتك، أنه يجب عليك أن تطرق الأبواب، لكي تستأذن قبل الدخول؟

كان عم "مصطفى " يتعجب لكلامها معه بهذه الطريقة، وبهذا الأسلوب المشوب بتوتر لا مبرر له، ورغم كل ذلك لم يكن عم "مصطفى" يبالي بها، أو بإهاناتها المتدفقة تجاهه بلا حساب، بل كان يركز كل اهتمامه - بعد أن تهرول لمغادرة المكان – أن يفعل مثلها تماماً، فكان يجلسني أمامه على كرسي خشب قديم من بقايا عهدته في المدرسة، ويخرج من جيب جلبابه الريفي الطويل باكو بسكويت، أعلم تماماً أنه أخذه خلسة من وراء ظهر أمين الجمعية التعاونية الطلابية بالمدرسة، ليغريني بباكو البسكويت الذي أحبه كثيراً، حتى أترك له سوسته



بنطالي مفتوحة، فأجده يجثو على ركبتيه ويتناول عضوي بكل رفق، وعندما يهم بوضعه داخل فمه ذي الشفاه الغليظة، كنت أقوم مفزوعاً، وأنتزع من يده عصا المكنسة التي كانت تعينه في مبرراته لضرورة تنظيف الفصول، وأهوي بها على جسده النحيل، وأضربه ضرباً مبرحاً بلا رحمة أو هوادة، حتى كادت الدماء تسيل منه بغزارة.

وفي يوم السبت، ولم تكن آثار الضرب قد شفيت بعد في وجهه، كان مدير المدرسة يبادره بسؤاله، عما فعل به كل هذه الندوب والجروح التي تملأ وجهه وجسده، فكان يرد عليه بسرعة:

- العفاريت ... العفاريت يا سعادة المدير... المدرسة دي مسكونة بالعفاريت... أنا لن أبيت فيها مرة أخرى، ولو وصل الأمر لقطع عيشي منها، ولتفعل ما تفعله يا سيادة المدير.

لكن وسط هذا الزخم الذي تشتعل به ذاكراتي، يظل وجه "وحيدة" بكل براءته الطفولية يطل عليّ، من كوة في ركن قصي بقلبي على حياتي مباشرة، فينعشها ويعطيني الأمل، في أن غداً مهما طال غيابه عن سماء روحي، لا بد أنه آتٍ لا محالة، وعندما يحين هذا الغد



المرتجى، سوف يصير كل شيء جميلاً، فلن أعود شبقاً، ولن تعود المعلمة، ولن تهاجمني ذكرياتي المؤلمة مرة أخرى، حتى أستطيع أن أهنأ بفراش هادئ مريح.

****

- إلى أين أسير؟ ...لا أعرف.... لكن يبدو أنه مكتوب على جبيني أنه يجب عليّ أن أسير... وأسير وأسير و..

أرى فيما يرى النائم أنني أسير في طريق طويل .... طويل أرضيّته خضراء طبيعية، ومحاط بسياج من الذهب الخالص، وبه أعمدة إنارة من المرمر، منتهية بلمبات من الماس النقي، تضاء وتنطفئ في وميض خاطف متكرر ... ومحاط من حوله في جميع الجهات مساحات كبيرة مكسوة بالأزرق السماوي ...

أحاول أن ألقي ببصري لأستطلع نهاية الطريق، أو أستطلع نهايات الأزرق... لا أستطيع... تزداد خطواتي أكثر وأكثر، حتى أصير أعدو ويزداد عدوي أكثر فأكثر، ويزداد لهاثي الذي كاد يحبس الأنفاس في صدري الجاثمة عليه صخرة ثقيلة لا تريد أن تبرحه مطلقا ...



ذلك اللهث الذي لم يوقفه، سوى وصول وشوشات إلى أذني لصوت أنثوي أعرفه وأعرفها تماماً... كلما جريت أكثر اقترب الصوت رغم عدوي عكس اتجاهه ... يعلو الصوت أكثر فأكثر، حتى يكاد يخترق أذني اختراقاً ...

تظهر الأنثى بكامل هيئتها أمامي فجأة... عارية تماماً ... نظيفة في كل جزء من جسدها تماماً ... شفافة تماماً، حتى أنني أكاد أري أحشاءَها الداخلية، وقطعتين من الماس النقي يستران الثديين، وقطعة وحيدة وصغيرة تستر ما بين الفخذين...

يكاد بريق قطع الماس يذهب بالمتبقي من نور عيني الكليلة... تنظر إليّ بعينين بلورتين، ثم تندفع بسرعة مذهلة نحوي، وتحاول أن تلقي بجسدها المرمري في حضني مباشرة، ولكنني أهرب منها في الاتجاه المقابل لها، والذي أتيت منه لتوي، ولا ينقذني من براثن هذا الجسد الفتاك، سوى سماعي لصوت أنثوي لأخرى أعرفها وأعرفه تماماً...

تختفي صاحبة الجسد المرمري التي كانت تطاردني منذ قليل، وأعود للسير في طريقي الأخضر مرة أخرى ... تزداد خطواتي أكثر وأكثر، حتى أصير أعدو ويزداد عدوي أكثر فأكثر، ويزداد لهاثي الذي كاد يحبس الأنفاس في صدري الجاثمة عليه صخرة ثقيلة لا تريد أن



تبرحه مطلقاً ... ذلك اللهث الذي لم يوقفه، سوى وصول وشوشات إلى أذني لصوت أنثوي أعرفه وأعرفها تماماً، كلما جريت أكثر اقترب الصوت رغم عدوي عكس اتجاهه ... يعلو الصوت أكثر فأكثر، حتى يكاد يخترق أذني اختراقا ...

تظهر الأنثى بكامل هيئتها أمامي فجأة... عارية تماماً ... نظيفة في كل جزء من جسدها تماماً ... شفافة تماماً، حتى أنني أكاد أرى أحشاءَها الداخلية، وقطعتين من الماس النقي تستران الثديين، وقطعة وحيدة صغيرة تستر ما بين الفخذين... يكاد بريق قطع الماس أن يذهب بالمتبقي من نور عيني الكليلة... تنظر إليّ بعينين بلورتين، ثم تندفع بسرعة مذهلة نحوي، وتحاول أن تلقي بجسدها المرمري في حضني مباشرة، ولكنني أهرب منها في الاتجاه المقابل لها، والذي أتيت منه لتوي، ولا ينقذني من براثن هذا الجسد الفتاك، سوى سماعي لصوت أنثوي لأخرى أعرفها وأعرفه تماماً...

تختفي صاحبة الجسد المرمري التي كانت تطاردني منذ قليل... كلما هربت من حضن أنثى عارية تماماً، يسلمني الهروب طواعية لصوت أنثى أخرى أعرفها أيضا تماماً...



ظللت هكذا حتى هدأت روحي الفزعة من هول ما عانيت، من كل هؤلاء النسوة العاريات الجميلات الحوريات العين ... خفت خطواتي وخف معها لهاثي، ورحت أسير على مهل وتأن .

كلما سرت في طريقي الأخضر المحاط بسياج الذهب الخالص، تهتز الأرض أسفل قدمي، ويسقط السياج تباعا، فكلما تخطيت منطقة من طريقي الأخضر أنظر خلفي، فأجد سياج الذهب ملقى بلا عناية على الأرض .

حاولت أن أغمض عيني قليلاً حتى أريحها من هول ما رأت، لكنني لا أستطيع ضم جفوني المتحجرة ... أحاول الضغط عليها بقوة، تأبى الجفون الحجرية الانغلاق ولا تطاوعني، أكرر المحاولة مرات ومرات، ومن بين آلاف محاولاتي الفاشلة في إجبار جفوني على الانغلاق، أرى على البعد زوجتي قادمة من بعيد، بعد أن عم الظلام المكان بأكمله، ولا توجد أية بقعة مضيئة في المكان بأسره، سوى دائرة صغيرة جداً تحيط بزوجتي، تسير معها كلما سارت ...وجهها لامع يبرق بوميض نوراني شفاف ... ترتدي ملابس الحداد كاملة... وتمسك بإحدى يديها شمعة طويلة تكاد تناظرها في الطول، ويشع منها وهج أصفر عجيب، يذهب ويجيء بحسب حالة اتجاه الريح، التي بدأت تعاني من صفيرها الحاد أذني السقيمة.



بالكاد يسمح لي وهج الشمعة برؤية المشهد كاملاً... يزداد المشهد اتضاحاً كلما اقتربت مني بنفس خطواتها البطيئة جداً ... يضطرب قلبي مع كل خطوة تخطوها نحوي، ويكاد ينشطر نصفين كلما اقتربت مني ... أتجمد مكاني رغم محاولاتي العديدة لنزع قدمي المغروزة في أرضية المكان.. كلما اقتربت مني أجد حفرة صغيرة بجواري تزداد في الاتساع ... تزداد اقتراباً مني، ويزداد مع اقترابها اتساع الحفرة، حتى ابتلعتني بسرعة شديدة...

أكاد أسقط على ظهري الذي تعاني معظم فقراته من الانزلاق ... أكاد أتبين وجهها اللامع وهى تميل من فوهة الحفرة لتتابع سقوطي المدوي ... تنتهي الهوة بفوهة واسعة لقدر ممتلئ عن آخره بالزيت المغلي، الذي لفحني بخاره بجأة. وعند اقترابي منه، وقبل أن أسقط في قدر الزيت، تلقفني ذلك الذي يكشر عن أنيابه بضحكته الخبيثة، وبشوكة ذات ثلاثة أنياب حادة تنغرز في لحمي بلا رحمة، فتنفجر الدماء بغزارة شديدة من جميع أجزاء جسدي، ثم ينفخ في وجهي بزفيره الحارق الذي يكاد أن يحرق وجهي، فيردني إلى مكاني قبل السقوط، ويلاحقني بضحكاته الصاخبة وصوته المزعج، بأن موعدي لم يحن بعد ...

أعود إلى طريقي، وتبدأ رحلة عودتي من حيث جئت بخطوات ثقيلة بطيئة، ثم تزداد خطواتي في السرعة، وما زلت أسمع أصواتاً لإناث أخريات أعرفهن تماماً .. وعند آخر صوت



أنثوي وصل إلى مسامعي، وكنت أعرفه وأعرفها تماماً، ظهرت أمامي فجأة .. عارية تماماً .. نظيفة في كل جزء من جسدها تماماً .. شفافة تماماً، حتى أنني أكاد أرى أحشاءَها الداخلية، وقطعتين من الماس النقي يستران الثديين، وقطعة وحيدة صغيرة تستر ما بين الفخذين.

يكاد بريق قطع الماس أن يذهب بالمتبقي من نور عيني الكليلة.. تنظر إليّ بعينين بلورتين ثم تندفع بسرعة مذهلة نحوي، وتحاول أن تلقي بجسدها المرمري في حضني مباشرة... حاولت الفرار ولكنها نجحت في القبض علي، ووصلت إلى حضني وظلت تحضنني بشدة، حتى كادت روحي أن تفر من بين ضلوعي ...

حاولت التملص منها لم أفلح .. حاولت مرة أخرى... لكنها أحكمت قبضتها علي، وظلت تضغط على صدري بشدة، حتى هربت بلا إرادة مني صرخة مدوية ...

هرولت على إثرها زوجتي إلى سريري، وهى تخبط بعفوية وهلع على صدرها المكتنز، وتمسك بيدها كوباً من الماء البارد، وتنفخ في وجهي بهواء زفيرها المعطر بروحها ... ساعدتني على الجلوس على السرير، ثم تمايلت برأسي على صدرها الذي طل علي بوهجه المعتاد، وطبعت قبلة حارة جداً على خدي المقارب لشفاهها الرقيقة، ثم قالت بحنان عجيب:



- ماذا بك يا حبيبي؟

****

- أحبـــــــــك.............

حاول عندما انفرد بها، بعيداً عن عيون الطلاب والمدرسين والمتلصصين في ركن قصي من الطابق الثالث بالمدرسة التي يعملان بها، أن يضبط نظرة ما منها كانت تحوم حوله، لكن لم يفلح ...

حاول أن يسرق كلمة من بين شفاهها الجائعة/ الجافة، لتؤكد إحساسها به الذي يتمناه، لكنها كانت أذكى من لص فاشل في سرقة ما يريد، وقتما يريد وممن يريد ...

هاجمها مرة أخرى باعترافه القنبلة:

- أحبـــــــــك.............

بلا تردد أو تفكير أو اضطراب أو تعجب أجابت بنبرات كلها ثقة:

- مثل الأخوات طبعاً.



تشاغل عن الرد أو تظاهر بذلك، فأعاد من بين أسنانه الناشفة ولعابه الذي هرب بلا رجعة، منذ أن طلب منها أن تنتظره في هذا الركن القصي من الطابق الثالث للمدرسة، في فسحة يوم السبت الموافق التاسع من مايو عام ألفين واثنين.

- أحبـــــك............

- إزاي يعني..............

- مثل كل الناس وكل الأحبة ... صدقيني أحبـــــــــك....أحبـــك.

لا يعرف بماذا أجابت، ولكنه أدرك جيداً محاولات حماماتها البكر للهروب من أسر سوتيانها المحزق، ليلقيا بأنفسهما في صدره مباشرة، حيث إنهما أطلاّ بنظرة غريبة من خلف حافة فستانها الحريري، التي تتلاقى معهما أسفل جيدها المدهش مباشرة ...

أطلاّ معاً بجرأة لم يعهدها فيها أو فيهما من قبل، وكأنهما يعلنان العصيان عن رفضها المقنع لحبه، أو كأنهما يحاولان في آخر محاولة مستميتة منهما، أن يساعداها على اكتشاف حبه من جديد..



حاولت بكل الطرق الهروب من أسر نظراته حتى لا تلتقي عيناها بعينيه، فتفضحها عيونها التي تضج بحبه ...

هكذا توهم أو ربما كان هو كذلك في الواقع فعلاً، أي كانت بالفعل تحبه وتمور في حبه حياتها كلها، دون أن يحاول هو إيجاد تفسيرات قسرية للمواقف القليلة التي حدثت بينهما، حتى يستطيع أن يقنع نفسه أنها بالحقيقة تحبه... تحبه ... تحبه كثيراً، أو تحبه أكثر مما يتخيل هو نفسه، أو حتى أكثر من مجرد تخمينات.

حاول أن يضمها، لتشكل إكليلاً من ورود جسدها البض يطوق بها عنقه مدى الحياة، وخاصة أنها لم تكن له يوماً ولن تكون، فلقد جاءت أحداث خطبتها وزوجها وحملها ووضعها لوليدها الأول سريعاً، بل أسرع مما كان يعتقد، بأن أيامه القادمة بعد رحيلها عنه سوف تكون حبلى له بالأخبار المفزعة، رغم علمه الأكيد بأنها لن تكون له يوماً، ولن تكون حيث زوجته التي يحبها كثيراَ، وحيث طفلاه الجميلان اللذان يعطيهما من روحه الكثير والكثير حتى يكونا أفضل منه.



لم تكن الأمور تحتمل أكثر من أن يحول دفتها ناحيته، حتى يستقر قلبه المضطرب في مكمنه داخل تجويف صدره، وربما لم تكن هذه الأمور بحاجة إلى تحويله لدفتها حتى تكون في صالحه، فقد كان يرى حبها له تنضح به عيناها كلما التقيا، أو حتى عندما يغيب عنها ... فعندما كان يتغيب عن المدرسة لسبب أو لآخر، كانت تسأل عنه كالمجنونة ومن أكثر من زميل وزميلة، فبماذا يسمى ذلك يا ترى؟

لم يكن هو الوحيد الذي توصل إلى هذه الحقيقة - حبها له- الواضحة وضوح الشمس، بل سبقته إليها صديقتها السمراء، حيث حدث ذات مرة، وبينما هو يقف مع صديقتها السمراء ومدرسة التربية الفنية البيضاء، وبينما كان هو يداعب مدرسة التربية الفنية في صفاء وجهها وروعة لون عينيها الخضراوين، أقبلت هي "وحيدة".

وعندما وصل إلى أطراف أذنيها بعض حروفه المبعثرة، عن حلاوة وجمال مدرسة التربية الفنية، حتى ألقته بنظرة حارقة كادت تشعل الحريق، ليس في جسده فقط، بل في المدرسة بأكملها. وبعد أن ابتعدت عنهم قليلاً مالت عليه صديقتها السمراء وقالت له:

- أنا بنت، وأفهم البنت التي مثلي؟



- يعني إيه؟

- أنها تحبك... بل تحبك كثيراً كثيراً؟

- وكيف عرفتِ هذا؟

- أنا قلت لك أنني بنت، وأفهم البنت التي مثلي.

رغم محاولاته المستميتة لإبعاد شبح مثل هذا التفكير عن ذهن صديقتها السمراء، وكأنه يحاول أن يتبرأ من مثل هذا الاعتراف الواضح والذي جاء من خارجها، ليؤكد له صدق إحساسها ناحيته، إلا أن صديقتها السمراء كانت تلح عليه كثيراً، في التأكيد على وجهة نظرها ووعيها، وفهمها الذي لا يخطئ أبداً لبنات جنسها، حتى أنها كانت تتبرع بخلق المواقف بينه وبين "وحيدة"، لتفسره بعد ذلك بما يدعم رأيها وصدق تفسيرها، بأن "وحيدة" بالفعل تحبه. وبمرور الوقت اكتشف أن صديقتها السمراء هي الأخرى تحبه، بل غارقة في حبه، ولكن ليس أكثر من حب وحيدة له، فقد كانت صديقتها السمراء تقول له:



- رغم حبي الكبير لك، ورغم أنه صعب على أي بنت أن تقبل أن تقاسمها أخرى في رجلها الذي أحبته، ورغم أنه تقاسمني فيك اثنتان وليست واحدة، إلا أن حب "وحيدة" لك يفوق حبي لك بعشرات المرات.

- من أين تأتين بمثل هذا الكلام؟

- أنا قلت لك كثيراً من قبل، أنا بنت وأفهم البنت التي مثلي.

لم يكل من محاولاته المستمرة لكي يتأكد من مشاعر "وحيدة" ناحيته، ففي إحدى المناسبات الدينية، والتي يتم الاحتفال بها سنوياً في المدارس، - عمل إفطار جماعي للعاملين في المدرسة في شهر رمضان المعظم -، التقط أحد زملائهما صورة لها مع مدرستها الأولى في مادة العلوم داخل معمل العلوم بالمدرسة، فلم يكن بالصور سواهما -هي والمدرسة الأولى- والتي كانت تجلس قبالتها، وعندما عهد إليه مدير المدرسة بمهمة تحميض الفيلم، وتوزيع الصور على المدرسين الراغبين في الاحتفاظ بصور هذه المناسبة، والذين تحتل أجسادهم ووجوههم مساحات كبيرة من نيجاتيف الفيلم، وجد هذه الصورة التي أسرع وخبأها في جيب سترته، وانتهز كعادته فرصة انفراده بها وقال لها:



- أنتِ اتفرجتِ على الفيلم بعد التحميض... دا فيه صورة لك أنتي والأبلة مني.

- والله؟ هي الصور طلعت؟

- أيوه.....

كان منشغلاً عن ردها بمحاولة إيجاد مبرر أو أكثر، عندما تسأله عن سر طلبه لصورتها ومنها هي، رغم أن الفيلم معه، ومن الممكن أن يطبع ما يريد من الصور ... استجمع كل قواه وألقى بطلبه في وجهها دفعة واحدة:

- أنا هآخذ الصورة بتاعتك.

- خذها....

صعقه ردها السريع والجاهز، وكأنها كانت تعلم ذلك مسبقاً، فلم تفكر أو تتردد أو تتلعثم، وقالت بكل ثقة وكبرياء في ذات الوقت خذها.

تهاوت مع كلمتها كل حججه الفارغة في قاع جمجمته، التي لم تعد تحتمل أكثر من ذلك، ومن مثل هذه المفاجآت الصاعقة، حتى كاد يدخل في غيبوبة لا يعلم سوى الله مدى عواقبها



... حاول التأكد من الكلمة خشية أن تكون أذناه قد خانتاه وجعلتاه يسمع ما يريد أن يسمعه منها:

- أنت قلت إيه الوقت...

- قلت لك خذها .

- ما هي ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

- صورتي التي معك ... أنت مش طلبتها مني، وأنا قلت لك خذها؟

لم يستطع أن يضبط إيقاع كلماته، أو كما تعود أن يكون معها، وأن يحول دفة المواقف لصالحه، فها هو الموقف بأكمله لصالحه تماماً، ولصالح يقينه الأبدي بأنها تحبه .... بالحقيقة تحبه ... حاول التأكيد أكثر على الموقف، حتى لا يفر التفسير الذي وصله لصالحه من بين يديه كالعادة، فعاد يقول لها وهو يضغط على مخارج الألفاظ من بين لعابه الذي لم يعد جافاً بعد:

- قولي تاني.. أصل أنا مسمعتش كويس.

- لا أنت سمعت كويس الكلام اللي أنا قلته؟



- سمعت إيه؟

- اللي سمعته مني الآن؟

- طيب ممكن تكتبي لي إهداء على ظهر الصورة للذكرى.

- لا.. ولو لم تسكت سوف آخذ منك الصورة ... أنت طماع جداً ألا يكفيك...

قاطعها بسرعة:

- ألا يكفيني إيه؟

- أنني بها.

إنه غرور الأنثى وكبرياؤها الذي لا يستطيع أحد أن يحده داخلها... لم يشأ أن يفسد اللحظة عليه، ولكنه عاد مرة أخرى حتى لا يفر المشهد من بين يديه كاملاً، ويخرج منه كالعادة خالي الوفاض، فهذه من المرات القليلة جداً التي كانت ترد فيها عليه بكلام غير كلمة "معرفش"، التي كانت دائماً تهرب بها منه ومن محاصرته لها، فباغتها:

- وهل أي واحد يطلب منك صورتك تعطيها له؟



رمقته بنظرة نارية وأشاحت بوجهها بعيداً وسارت، وبعد أن ابتعدت عنه بخطوات قليلة قالت له بحدة:

-وهو أنت أي حد؟

لم يشأ أن يفسد على نفسه المشهد أكثر من ذلك، فأرخى جفنيه ورحل معها إلى حيث يريد هو، وقد لا تريد هي، وربما حيث يريدان معاً، وربما التقيا حقاً مرة أخرى................ ربما.

- ممكن

- ممكن ماذا؟

- ممكن ترقصين لي الآن.

- لماذا؟

- لأن جسد الأنثى يكشف عن أسراره وكنوزه في حالة الرقص.



- إنني لا أجيد الرقص... فكيف سأرقص لك؟

ظلت صديقتها السمراء تراوغه، حتى تهرب من هذا المنحدر الذي يحاول من خلاله أن يحاصرها تماماً، ليدفعها إليه دفعاً، ولكنها – علي غير العادة أو المتوقع- أبت بشدة، رغم أنه انتهى لتوه من لقاء غرامي لافح معها على سرير زوجته، وهي كانت بين أحضانه عارية تماماً .

عجيبة هي المرأة وغريبة تركيبتها النفسية، فهي بحق تحيره، وأفاق من سرحانه وقال لها بحزم:

- بحق حبنا الطاهر، هل لا تجيدين الرقص؟

راحت تبحث في عقلها الصغير عن معنى لمفردة الطاهر، الذي ألحقها بكلمة حبهما، رغم ما فعلاه من دنس واضح منذ قليل، وعندما لم تجد معنى محدداً لهذه المفردة الغريبة جداً جداً علي علاقتهما معاً، زاغت عيناها في فضاء حجرة نوم زوجته.

كان يشعر براحة غريبة وإصرار عجيب، على أن يضاجع صديقة وحيدة السمراء فيها، ولم يكن يعكر صفو لقائه بها، سوى غُصة تظل عالقة بحلقه طوال لقائه الغرامي اللافح بها ...



تحاول الفكاك منه ومن طلبه المفاجئ والغريب، وخاصة بعد أن أدار لها شريطاً كاسيت عليه صوت موسيقي راقصة قالت بعصبية واضحة :

- أنت بحق مجنون.

- لا تخافي.

- كيف لا أخاف.

- عجيبة تصرفاتك تخشين من الرقص أمامي، ولا تخشين أن أحرق بكارتك، وينتهي كل شيء وقد تنتهي حياتك.

- أفعل ذلك لأنني أحبك حقيقي، ولا أريدك أن تغضب مني.

- وأنت برفضك الرقص ألا تغضبينني.

- زوجتك تأتي.

- ولم تخافي أن تأتي، ونحن عاريان فوق السرير؟



- أنت قلت لي إنها عند أهلها، وأنا معك منذ فترة ليست بالقليلة، بمعنى أنها قد تكون عائدة الآن.

- لا تخافي لن تعود الآن.

- أنا خائفة جداً.

- لا يجتمع الخوف والحب معاً، مثل الظلام والنور لا يجتمعان، فالنور يبدد الظلمة تبديدًا، ووجودي معك كفيل بأن ينتزع أي إحساس بالخوف من داخلك.

- قلبي يكاد يتوقف من كثرة لهثه وضرباته.

- غريبة، لم أسمع هذه الضربات وأنا امتطيكي منذ قليل.

- أنت لم تعد تسمع شيئاً سوى دقات قلب "وحيدة"... يا بختها بحبك لها.

- أتغارين من وحيدة بحق؟

- كان أولى بي أن أغار من زوجتك لو أنني أغار، لأنني أرى أن الغيرة ضعف، وأنا ضعفي الوحيد أنت. هل فهمت؟



- وماذا حدث؟

- أشعر أنك لا تحبني مثلما أحبك أنا.

- كلامي لك إن لم تحسيه يكون باطلاً.

- ماذا تعني بكلامك؟

- لو أنك لم تشعري بحبي لك، فأي كلام سوف أقوله لك يدخل من هذه الأذن ويخرج من الأذن الأخرى... فهمت أنت.

- أنت مجنون وسوف تجنني معك.

- لماذا؟

- هل أنت تحب زوجتك وأولادك وهذا شيء متأكدة منه، أم تحب "وحيدة" وهذا أيضاً متأكدة منه تماماً، أم تحبني أنا، وهذا ما لست متأكدة منه نهائياً مهما حاولت إقناعي؟

- تطلبين مني الحقيقة؟



- طبعاً.....

- أنا نفسي لا أعرف إجابة عن هذه التساؤلات، ولن تصدقيني إذا قلت لك حقيقي، أنا أبحث معك عن إجابة، هل أنا أحب زوجتي وأولادي، أم أحب وحيدة، أم أحبك؟

أطلت من عينيها نظرة رضاء عن موقفه منها أشبعت غرورها الأنثوي إلى حد كبير جداً، فهي وإن كانت تدرك تماماً أنه لم يحببها ولن يحبها، إلا أنها شعرت بارتياح عجيب، عندما وضعها في مستوى واحد من حيرته مع زوجته ومع "وحيدة"، فهي على الأقل بهذا الوضع تكون في نفس مستواهم لديه، ولا يهم ما تعرفه هي، أو ما تشعر به من عدم حبه لها، فجميعهن في كفة واحدة عنده، ولكن ما زال القلق يساورها من مغبة معاودة طلبه لها، لكي ترقص له مرة أخرى.

- أنا تأخرت كثيراً ويجب أن أرحل الآن.

- ما زال أمامنا متسعاً من الوقت .

- أنت تعلم.. أخشى أن يقلقوا على في البيت، وأنا لا أريد أن يشك أحد في أي تصرف أقوم به، حتى لا ينفضح أمري معك.



- مرة أخرى تعاودين الجهر بإحساسك بالخوف وأنت معي؟ أنت لا تحبينني.

ضحكت، فظهرت أسنانها البيضاء من بين سمار وجهها المسحوب وقالت:

- وما الذي يجبرني على فعل كل ما أفعله معك، إن لم أكن أحبك يا حبيبي.

- الرغبة... الرغبة....

- ماذا؟

- الشهوة ... أنا أعلم أن شهوة المرأة أكبر بكثير من شهوة الرجل.

- هذا هو رأيك في حبي لك؟

- نعم

- الأنثى التي تشتهي أي رجل لمجرد الشهوة أنثى لا تستحق الحياة.

- كيف؟



- الأنثى لا تسلم جسدها إلا لاثنين فقط، إما لزوجها بقوة حقه الشرعي، أو لحبيبها بقوة الحب.

- وممكن أن تسلم جسدها لحبيبها بقوة الرغبة والشهوة، وأيضاً من الممكن للأنثى أن تسلم جسدها للرجل الذي يدفع لها بقوة الحاجة والعوز، فالغانيات والبغايا مثال على ذلك.

- الغانيات والبغايا هن من قلت لك عنهن، إنهن لا يستحققن الحياة والعيش فيها..أما أنا فأحدثك عن نفسي فقط.

- وأنت أيضا تسلميني نفسك من أجل الشهوة، وخاصة أن سن زواجك قد تأخر كثيراً.

طفرت دمعة ساخنة من عينيها اكتوى بها خدها اللامع، وقالت له بصوت متقطع ممزوجاً ببكائها:

- ما كنت أظنك تراني هكذا.. وما أدراك أن سن زواجي قد تأخر؟ وكثيراً أيضاً..! أنا لم أبلغ الثالثة والعشرين بعد.

- مع أن الذي يراك يعطيك أكبر من هذا بكثير... هل أغضبك كلامي؟



- أغضبني، وأحزنتني فكرتك عني، وأنا التي لا تنام الليل بطوله من حبك.

- سامحيني... لقد شعرت في أول لقاء حميمي بيني وبينك، أنه ليس أول لقاء جنسي لك، وأنك معتادة ذلك.

- الله يسامحك، أرجوك لا تتحدث معي بهذه الطريقة حتى لا تزيد جروحي.

- هل أنا جرحتك؟

- الم تشعر بما تقول؟

- أنا أصارحك بما يعتمل داخلي من هواجس.

- وأنا لا أريد صراحتك هذه، طالما أنها تجرحني هكذا.

ظل الحوا ر بينهما سجالاً، بين التأكيد من ناحيته على أنها لم تكن المرة الأولى التي تمارس فيها الجنس، بل من الممكن أن تكون قد مارسته مع كثيرين غيره من قبل، وبين رفضها القاطع لكلامه، ولكن دعم شكوكه أكثر، أنها تركته على وعد بلقاء غرامي لاحق في أقرب وقت ممكن.



****

- تحبينني؟

- بموووووووت فيك......

أية إجابة تنتظرها من أنثى تطوق عنقك وهى عارية تماماً، وترقد تحتك بكامل رغبتها، وتتلقف بلهفة عجيبة قضيبك لإيلاجه داخلها كاملاً، ثم تلقم شفتيك بسرعة غريبة، وتلتهمهما في شبق أغرب؟

سؤال ساذج طفر فجأة في ذهنك وأنت تمتطيها، في إحدى المرات التي تكررت بينكما كثيراً، وحينما كنت تواجهها بأنها لم تكن تأتي إليك إلا لإشباع رغبتها التي استبدت بها، كانت تبكي كثيراً، حتى تتورم عيناها، وكانت تلوم عليك كثيراً لأنك اختزلت حبها الكبير لك وتضحياتها الكبيرة، بإهدار سمعتها أدراج الريح كبنت عذراء في وسط مجتمع لايرحم.

كل ذلك اختزلته بمجرد إشباع شهوة، كانت من الممكن أن تشبعها بآلاف الطرق، ومن آلاف الأشخاص في مجتمع مغلق يبحث عن الممنوعات في كل جزء من حياته.



لم تكن تعلم أنها تفعل ذلك من أجل أن ترضيك أنت ولا أحد غيرك، وأنت دائماً لا ترضى بها أو عنها، ولكنك أحببت التجربة أكثر منها، فمنذ أن جاءت إليك في منزلك، وهي تعلم تماماً أنك متزوج ولديك أولاد ...

خلعت هي برقع الحياء، ولم تعد ترى شيئاً يمنعها عنك، ولم تستطع أن تقهر حبك الذي اجتاحها وهزم مقاومتها ... حتى صورة زواجك بمن أحببتها يوماً وما زلت، والتي كانت معلقة أعلى هامتها مباشرة، لم تعصمها من أن تمسك يدك وتقبلها بحرارة وتقول لك:

- لم أكن أعلم أنني سوف أكون "وحيدة" أخرى!

كنت تحاول الهروب من إجابة معينة، حتى لا تخدر بها ومعها، وتتيح لها الفرصة التي تنتظرها لتغتنمها، لنيل ولو جزءاً ضئيل جدًّا من قلبك الممتلئ عن آخره بحب زوجتك وأولادك، وكنت دائماً تبادل النظرات بينها وبين صورة زواجك المعلقة فوقها مباشرة، وكنت تتركها تسكب ما في روحها تحت قدميك، حتى لا تصدمها أو تحدث عندها عقدة، لا يعرف سوى الله تعالى عقباها.



هي لم يكْفِها أنها تريدك أن تخون زوجتك فقط، بل خانت صديقتها الوحيدة "وحيدة"، التي كانت تعلم تماماً كم كانت "وحيدة" تحبك ... وكم كانت تتعذب من أجل هذا الحب.

- ماذا تريد هذا الأنثى/ الأفعى بالتحديد؟

لم تجد إجابة عن سؤالك، سوى أنها تريد حبها لك، وليس حبك لها، لأنها كانت تعلم تماماً أنك لم ولن تحبها مطلقاً، وإن كنت سوف تحبها، فكان الأحرى بك أن تحب "وحيدة" التي شغلت بالك ليالاً طوالاً، ليس لأنك لا تحب زوجتك، أو أنك وقعت في غرام "وحيدة"، ولكن لأن تجربة "وحيدة" في الحياة ظلمتها كثيراً كثيراً، وأنت تحب كثيراً أن تقف بجانب المظلومين، وخاصة أنها أنثى مكسورة الجناح والقلب...

كنت تدرك تماماً أن صديقتها السمراء تحبك تماماً، ولكن إدراكك جاء متأخراً جداً، بعد أن حاولت أن تستثمر حب السمراء لك، لتنفيذ خططك في السيطرة على "وحيدة"، حيث إنه بعد زواج "وحيدة"، أصبحت السمراء هي الجسر الوحيد الذي يربط بينك وبين "وحيدة" ...



كنت ترى لمعاناً غريباً في عينيها في كل مرة كنت ترسلها فيها إلى "وحيدة"، وهى تؤكد لك أن "وحيدة" لم تحبك أبداً ولن تحبك، وأنه لم يحدث بينكما طيلة العام الدراسي الذي عملت معك فيه، ما يستدعى أن تفعل. كل ما تفعله معها من أشياء، من الممكن أن تجبر المجتمع على إصدار أحكام قاسية على كل منكما ....

كانت صديقتها السمراء تبرر أمامك تصرفاتها تلك، بأنها بنت مثلها، وتفهم في هذه المواقف، ورغم أن الصديقة السمراء كانت تؤكد لك أن "وحيدة" لم تحبك ولن، إلا أنها كانت تعلم كما قالت بحكم أنها بنت، وتفهم البنت التي مثلها، بأن "وحيدة" تموت فيك.

كنت تتعجب، كيف أن صديقتها السمراء هذه تقبل أن تلعب هذا الدور القميء المبتذل، حتى لو كان على حساب حبها لك، أو لكي ترضيك، أو على الأقل لتنال رضاك الذي تشتهيه ليل نهار، والذي - رغم تورطك معها في علاقة جنسية صريحة ومباشرة.

لم تقل لها يوماً كلمة "أحبك"، سوى مرة واحدة فقط فلتت من لسانك وأنت تمتطيها، وكانت بفعل النشوة العارمة التي اجتاحتك وأنت تضمها بقوة، وقضيبك يعمل بداخلها،



وكانت غصباً عنك، لأن زوجتك كانت قد وضعت مولودها الثاني، وكنت لا تقربها حتى تتطهر من دماء الولادة المسكونة بالمرض.

كنت تستخدم صديقتها السمراء هذه، والتي ركعت لك ذات يوم وسلمت لك مفاتيح حياتها، كي تحاول أن توصل رسائل بعينها إلى "وحيدة" التي ابتعدت عنك تماماً.

لم يعد لك إليها سبيل سوى أنثى مثلها، تستطيع أن تدخل منزل أبيها قبل الزواج، ومنزل زوجها بعد الزواج، وليس أية أنثى بل أنثى مقربة منها، ولم تكن تعلم ماذا تريد أنت، سواء من نفسك أو من "وحيدة"، أو حتى من صديقتها السمراء.

كل الرسائل الساذجة التي أرسلتها إلى و"حيدة"، من خلال صديقتها السمراء، لتكتشف مشاعرها نحوك، لم تُؤتِ أية ثمار، بل جاءت نتائجها على العكس تماماً، لأن كرامة "وحيدة" وهى المرأة المتزوجة، عزّت عليها أن تتعرى أمام أنثى مثلها، ليس أفضل حالاً منها، فكانت الردود التي تأتي منها تحمل جميعها عبارات الاستنكار والاستهجان من موقفك، والاشمئزاز من تصرفاتك، والاستفزاز من إصرارك على وضعهما في مواجهة أنثوية عنيفة أمام بعضهما البعض...



ظللت تضغط على "وحيدة" من خلال صديقتها السمراء، حتى وصلت بها إلى حالة من الغليان، لدرجة أنها كانت تقسو عليك بالألفاظ أمامها، وكانت صديقتها السمراء حرصاً عليك وعلى مشاعرك، تحاول أن تخبئ مثل هذه العبارات القاسية عليك وعلى قلبك المرهف.

حتى أن "وحيدة" من فرط ضيقها منك ومن تصرفاتك، وعندما طالبت صديقتها السمراء أن تخبرها صراحة أنك تحبها – ولم تكن أنت كذلك، أو كنت تعرف ماذا كنت تريد منها بالتحديد – قالت لها بالحرف الواحد، حسب رواية صديقتها السمراء لك:

- حبه برص... أنا لو قابلته في الشارع كنت أضربه بالجزمة على رأسه... يا خسارة، كنت اعتبره مثل أخي، لا أخي إيه، أخي عنده كرامة أكتر منه.

لم تكن بحاجة إلى أن تستمع إلى كلام من "وحيدة" يخص مشاعرها نحوك، أنت تعلم كم تحطمت وكم تألمت، لدرجة أنها قالت لك ذات مرة إنها تبكي كثيراً كثيراً، ولا تجد مفراً من أزماتها المتكررة سوى البكاء، وأن الموت عندها أهون كثيراً من حياتها بهذا الشكل.



كانت تقول لك هذا الكلام وأكثر، في لحظات الصفاء القليلة التي كانت تجمعك معها في المدرسة، التي كنت تعمل فيها أنت و"وحيدة" وصديقتها السمراء، التي دخلت بكامل إرادتها فى قلب الموضوع، بعد أن لمّحت لك ذات مرة بأنها تعلم حقيقة مشاعر"وحيدة" نحوك.

هذه هي الحقيقة التي استنكرتها تماماً في حينه، وكان ذلك ذات صباح جمعك بصديقتها السمراء، ومُدرّسة التربية الفنية بالمدرسة، وبعد قليل جاءت "وحيدة" لكي تلقي عليكم تحية الصباح، في مجلسكما البعيد عن عيون الإدارة المدرسية والطلاب وجرس الفسحة وصخب الفصول، فكان جُرح "وحيدة" منضبطاً تماماً، على عبارات الغزل التي كنت معتاداً أن تداعب بها مدرسة التربية الفنية الجميلة، فلم تُلقِ "وحيدة" عليكم تحية الصباح كعادتها، بل اكتفت بتبادل نظرات غريبة بينكم أنتم الثلاثة، ثم آثرت الابتعاد عنكم قليلاً، وأخذت تطلق بصرها إلى عنان السماء. بعدها طلبت منك صديقتها السمراء أن تجلس معك بمفردها وقالت لك:

- أنا بنت وأفهم البنت اللى زيي .... "وحيدة" بتحبك.



نظرت إليها باندهاش لم تعبأ هي به، بل واصلت كلامها كي تحلل لك تلك النتيجة التي توصلت إليها، والتي استنتجتها لتوها من ذلك الموقف الذي حدث بينكما منذ قليل، ومن وقتها وصديقتها السمراء تقترب منك شيئًا فشيئاً، حتى حدث بينكما ما حدث، وما كنت تريده أن يحدث مطلقاً.

أرى فيما يرى النائم أنني أسير في طريق طويل .... طويل أرضيّته خضراء طبيعية، ومحاط بسياج من الذهب الخالص، وبه أعمدة إنارة من المرمر، منتهية بلمبات من الماس النقي، تضاء وتنطفئ في وميض خاطف متكرر ... ومحاط من حوله في جميع الجهات مساحات كبيرة مكسوة بالأزرق السماوي ...

أحاول أن ألقي ببصري لأستطلع نهاية الطريق، أو أستطلع نهايات الأزرق... لا أستطيع... تزداد خطواتي أكثر وأكثر، حتى أصير أعدو ويزداد عدوي أكثر فأكثر، ويزداد لهاثي الذي كاد يحبس الأنفاس في صدري الجاثمة عليه صخرة ثقيلة لا تريد أن تبرحه مطلقا ...



ذلك اللهث الذي لم يوقفه، سوى وصول وشوشات إلى أذني لصوت أنثوي أعرفه وأعرفها تماماً... كلما جريت أكثر اقترب الصوت رغم عدوي عكس اتجاهه ... يعلو الصوت أكثر فأكثر، حتى يكاد يخترق أذني اختراقاً ...

تظهر الأنثى بكامل هيئتها أمامي فجأة... عارية تماماً ... نظيفة في كل جزء من جسدها تماماً ... شفافة تماماً، حتى أنني أكاد أري أحشاءَها الداخلية، وقطعتين من الماس النقي يستران الثديين، وقطعة وحيدة وصغيرة تستر ما بين الفخذين...

يكاد بريق قطع الماس يذهب بالمتبقي من نور عيني الكليلة... تنظر إليّ بعينين بلورتين، ثم تندفع بسرعة مذهلة نحوي، وتحاول أن تلقي بجسدها المرمري في حضني مباشرة، ولكنني أهرب منها في الاتجاه المقابل لها، والذي أتيت منه لتوي، ولا ينقذني من براثن هذا الجسد الفتاك، سوى سماعي لصوت أنثوي لأخرى أعرفها وأعرفه تماماً...

تختفي صاحبة الجسد المرمري التي كانت تطاردني منذ قليل، وأعود للسير في طريقي الأخضر مرة أخرى ... تزداد خطواتي أكثر وأكثر، حتى أصير أعدو ويزداد عدوي أكثر فأكثر، ويزداد لهاثي الذي كاد يحبس الأنفاس في صدري الجاثمة عليه صخرة ثقيلة لا تريد أن



تبرحه مطلقاً ... ذلك اللهث الذي لم يوقفه، سوى وصول وشوشات إلى أذني لصوت أنثوي أعرفه وأعرفها تماماً، كلما جريت أكثر اقترب الصوت رغم عدوي عكس اتجاهه ... يعلو الصوت أكثر فأكثر، حتى يكاد يخترق أذني اختراقا ...

تظهر الأنثى بكامل هيئتها أمامي فجأة... عارية تماماً ... نظيفة في كل جزء من جسدها تماماً ... شفافة تماماً، حتى أنني أكاد أرى أحشاءَها الداخلية، وقطعتين من الماس النقي تستران الثديين، وقطعة وحيدة صغيرة تستر ما بين الفخذين... يكاد بريق قطع الماس أن يذهب بالمتبقي من نور عيني الكليلة... تنظر إليّ بعينين بلورتين، ثم تندفع بسرعة مذهلة نحوي، وتحاول أن تلقي بجسدها المرمري في حضني مباشرة، ولكنني أهرب منها في الاتجاه المقابل لها، والذي أتيت منه لتوي، ولا ينقذني من براثن هذا الجسد الفتاك، سوى سماعي لصوت أنثوي لأخرى أعرفها وأعرفه تماماً...

تختفي صاحبة الجسد المرمري التي كانت تطاردني منذ قليل... كلما هربت من حضن أنثى عارية تماماً، يسلمني الهروب طواعية لصوت أنثى أخرى أعرفها أيضا تماماً...



ظللت هكذا حتى هدأت روحي الفزعة من هول ما عانيت، من كل هؤلاء النسوة العاريات الجميلات الحوريات العين ... خفت خطواتي وخف معها لهاثي، ورحت أسير على مهل وتأن .

كلما سرت في طريقي الأخضر المحاط بسياج الذهب الخالص، تهتز الأرض أسفل قدمي، ويسقط السياج تباعا، فكلما تخطيت منطقة من طريقي الأخضر أنظر خلفي، فأجد سياج الذهب ملقى بلا عناية على الأرض .

حاولت أن أغمض عيني قليلاً حتى أريحها من هول ما رأت، لكنني لا أستطيع ضم جفوني المتحجرة ... أحاول الضغط عليها بقوة، تأبى الجفون الحجرية الانغلاق ولا تطاوعني، أكرر المحاولة مرات ومرات، ومن بين آلاف محاولاتي الفاشلة في إجبار جفوني على الانغلاق، أرى على البعد زوجتي قادمة من بعيد، بعد أن عم الظلام المكان بأكمله، ولا توجد أية بقعة مضيئة في المكان بأسره، سوى دائرة صغيرة جداً تحيط بزوجتي، تسير معها كلما سارت ...وجهها لامع يبرق بوميض نوراني شفاف ... ترتدي ملابس الحداد كاملة... وتمسك بإحدى يديها شمعة طويلة تكاد تناظرها في الطول، ويشع منها وهج أصفر عجيب، يذهب ويجيء بحسب حالة اتجاه الريح، التي بدأت تعاني من صفيرها الحاد أذني السقيمة.



بالكاد يسمح لي وهج الشمعة برؤية المشهد كاملاً... يزداد المشهد اتضاحاً كلما اقتربت مني بنفس خطواتها البطيئة جداً ... يضطرب قلبي مع كل خطوة تخطوها نحوي، ويكاد ينشطر نصفين كلما اقتربت مني ... أتجمد مكاني رغم محاولاتي العديدة لنزع قدمي المغروزة في أرضية المكان.. كلما اقتربت مني أجد حفرة صغيرة بجواري تزداد في الاتساع ... تزداد اقتراباً مني، ويزداد مع اقترابها اتساع الحفرة، حتى ابتلعتني بسرعة شديدة...

أكاد أسقط على ظهري الذي تعاني معظم فقراته من الانزلاق ... أكاد أتبين وجهها اللامع وهى تميل من فوهة الحفرة لتتابع سقوطي المدوي ... تنتهي الهوة بفوهة واسعة لقدر ممتلئ عن آخره بالزيت المغلي، الذي لفحني بخاره بفجأة. وعند اقترابي منه، وقبل أن أسقط في قدر الزيت، تلقفني ذلك الذي يكشر عن أنيابه بضحكته الخبيثة، وبشوكة ذات ثلاثة أنياب حادة تنغرز في لحمى بلا رحمة، فتنفجر الدماء بغزارة شديدة من جميع أجزاء جسدي، ثم ينفخ في وجهي بزفيره الحارق الذي يكاد أن يحرق وجهي، فيردني إلى مكاني قبل السقوط، ويلاحقني بضحكاته الصاخبة وصوته المزعج، بأن موعدي لم يحن بعد ...

أعود إلى طريقي، وتبدأ رحلة عودتي من حيث جئت بخطوات ثقيلة بطيئة، ثم تزداد خطواتي في السرعة، وما زلت أسمع أصواتاً لإناث أخريات أعرفهن تماماً .. وعند آخر صوت



أنثوي وصل إلى مسامعي، وكنت أعرفه وأعرفها تماماً، ظهرت أمامي فجأة .. عارية تماماً .. نظيفة في كل جزء من جسدها تماماً .. شفافة تماماً، حتى أنني أكاد أرى أحشاءَها الداخلية، وقطعتين من الماس النقي يستران الثديين، وقطعة وحيدة صغيرة تستر ما بين الفخذين.

يكاد بريق قطع الماس أن يذهب بالمتبقي من نور عيني الكليلة.. تنظر إليّ بعينين بلورتين ثم تندفع بسرعة مذهلة نحوي، وتحاول أن تلقي بجسدها المرمري في حضني مباشرة... حاولت الفرار ولكنها نجحت في القبض علي، ووصلت إلى حضني وظلت تحضنني بشدة، حتى كادت روحي أن تفر من بين ضلوعي ...

حاولت التملص منها لم أفلح .. حاولت مرة أخرى... لكنها أحكمت قبضتها علي، وظلت تضغط على صدري بشدة، حتى هربت بلا إرادة مني صرخة مدوية ...





تمت الرواية

....

للمزيد من المواضيع الحصريَّة:

نتشرف بزيارتك إلى موقعنا الرسمي ألايكا لاطّلاعك على المزيد من المواضيع الحصريَّة في جميع أقسام ألايكا عبر رابط موقعنا التالي:

